دور العلم

د. عمر موسى باشا

دور العلم

د. عمر موسى باشا

المقدمة

اهتم العرب بالعلم والتعلم منذ القدم كسائر الشعوب والأمم، وقد ظهر كثير من العلماء في شتى النشاطات الدينية والعلمية والثقافية، ولا شك أن الثقافة العربية كانت دعامة الثقافة الإسلامية وذخرها، إذ إنها كانت العماد الذي قامت عليه، والمدد الذي حفظها وجعلها تتطور وتتجدد عبر العصور، والمداد الذي كتب به في سفر الحضارة الإنسانية، وآية ذلك كله أن الله تعالى أنزل القرآن من لدنه بلسان عربي مبين.

ومما لا شك فيه أيضاً أن طبيعة نشوء دور العلم عامة، وظهور الإجازات العلمية خاصة، كانت، وفق الشكل الذي ظهرت فيه وتميزت به، مظهراً عربياً أصيلاً، تفردت به الحضارة العربية دون غيرها من الحضارات الإنسانية.

ولو استعرضنا، بالتالي، الثقافات الإنسانية قبل انتشار الثقافة العربية لأدركنا بعمق أننا نفتقد وجود مثل هذا النمط الثقافي العربي الفريد في آفاق المعارف الإنسانية.

يؤكد لنا هذا كله أن هؤلاء العرب الأجلاف، كما ينعتهم بعضهم، وهم الذين انطلقوا من صحاراهم، قد استطاعوا، بسرعة كبيرة جداً، أن يسجلوا سبقاً حضارياً مذهلاً، وما زلنا نرى بعض مظاهره وآثاره مطبقة في مناهج الجامعات الغربية الحديثة، دون أن يعرفوا أن ذلك كله مقتبس من ذخائر الفكر العربي، وهو تأثر بها، وتطبيق للمناهج التي عرفت في زوايا المساجد، وحلقات العلم، وطرائق البحث، ولا سيما في هذا النمط الفريد في الإجازات العلمية وضروبها المختلفة.

ولا بد لنا، لكي نبرز أهمية الإجازات في الثقافة الإسلامية، من أن نعرض بادئ الأمر نشوء دور العلم، وكثرتها، وتنوعها، ونوضح من خلال ذلك دور العلماء في تطور الفكر العربي ومستقبل الحضارة الإسلامية.

القسم الأول: نشوء دور العلم

نشير بادئ الأمر إلى أهمية المساجد التي كانت في وقت واحد دوراً للعبادة والعلم منذ فجر الإسلام، وقد قدمت خدمات جلى في حقل الدين والتربية والثقافة، سواء أكان ذلك في تربية الصغار أم تعليم الكبار.

الجامع الأموي وأهميته الثقافية

وكان لمسجد بني أمية الجامع في دمشق، وهو من أقدم المساجد التي بنيت أثر الفتوح بعد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، أكبر الأثر لأنه أسهم بدور فعال في تأصيل الثقافة الإسلامية قبل إنشاء الجامع الأزهر على يد جوهر الصقلي سنة 361هـ في القاهرة بأكثر من ثلاثة قرون من الزمن، ويمكن أن نعد هذه الجامعة الأموية من أقدم الجامعات الإسلامية، وكان لها دور فعال في نشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية عبر العصور.

تحدث ابن جبير الكناني الرحالة الأندلسي (المتوفى سنة 614هـ) عن هذا المسجد، ووصف ما فيه من نشاطات علمية وتعليمية وثقافية، ومما قاله:

"وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم، كل يوم أثر صلاة الصبح، لقراءة سبع من القرآن دائماً(1). ومثله أثر صلاة العصر، لقراءة تسمى (الكوثرية)، يقرؤون فيها من سورة الكوثر إلى الخاتمة، ويحضر في هذا المجتمع الكوثري كل من لا يجيد حفظ القرآن، وللمجتمعين على ذلك إجراء كل يوم، يعيش منه أزيد من خمس مئة إنسان، وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم، فلا تخلو القراءة منه صباحاً ولا مساءً...

وعند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحاً يستند كل إنسان منهم إلى سارية، ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن. وللصبيان على قراءتهم جراية معلومة. فأهل الجدة من آبائهم ينزهون أبناءهم عن أخذها، وسائرهم يأخذها، وهذا من المفاخر الإسلامية.

وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين، ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها، تنزيهاً لكتاب الله، عز وجل، عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو.

وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة، والمكتب على حدة، فينفصل عن التلقين إلى التكتيب، لهم في ذلك سيرة حسنة. ولذلك ما يتأتى لهم حسن الحظ، لأن المعلم له لا يشتغل بغيره، فهو يستفرغ جهده في التعليم والصبي في التعلم كذلك، ويسهل عليه لأنه بتصوير يحذو

حذوه"..(2).

لم يكن الأمر ليقتصر على المجتمع السبعي الأول المختص بالمتعلمين الكبار، والمجتمع السبعي الثاني المختص بالمبتدئين من الصبيان الصغار، والمجتمع الكوثري الثالث المختص بتعليم الأميين الذين لم يكونوا يحفظون القرآن، وإنما يستطرد ابن جبير ليتحدث عن المدرسين والحلقات العلمية الخاصة والعامة، ومما قاله:

"وفيه حلقات للتدريس للطلبة، وللمدرسين فيها إجراء واسع، (3) وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي، يجتمع فيه طلبة المغاربة ولهم إجراء معلوم.

ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة، وأغرب ما يحدث به أن سارية من سواريه، هي بين المقصورتين القديمة والحديثة، لها وقف معلوم يأخذه المستند إليها للمذاكرة والتدريس. أبصرنا بها فقيهاً من أهل إشبيلية يعرف بالمرادي...(4).

وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير، يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم، وهذا أيضاً من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد"(5).

لم يقتصر الأمر على حلقات التدريس المخصصة للمدرسين والطلبة، وإنما نجد فيه زوايا خاصة منعزلة يستطيع الطلاب منها الانفراد للتحضير والدراسة وهي بعيدة عن الازدحام.

يقول ابن جبير "وبالجامع المكرم عدة زوايا على هذا الترتيب يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس، وهي من جملة مرافق الطلبة"(6).

تلك هي حال المسجد الجامع وغيره في القرن السادس ومطلع القرن السابع الهجريين، فلقد قدم خدمة كبرى في ميدان العلوم الدينية والنشاطات الثقافية، وهكذا أصبح قبلة أنظار الطلبة والعلماء في المشرق والمغرب على السواء. وليس من باب المصادفة أن يختتم ابن جبير حديثه الشيق عن دمشق ومسجدها الجامع بقوله:

"ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء، ولا سيما لحفاظ كتاب الله، عز وجل، والمنتمين للطلب. فالشأن بهذه البلدة لهم عجيب جداً. وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أوجد.

فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد، ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة. فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها، فإذا كانت الهمة، فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد، ولا عذر للمقصر إلا من يدين بالعجز والتسويف، فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه، وإنما المخاطب كل ذي همة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي.

فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام، وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد، وتقرع سن الندم على زمن التضييع، والله يوفق ويرشد، لا إله سواه، قد نصحت إن ألفيت سامعاً، وناديت إن أسمعت مجيباً، (ومن يهد الله فهو المهتد)"(7).

وهكذا وجدنا المغاربة يؤمون دمشق لطلب العلم والمعرفة، وكانت سيرتهم حميدة مؤتمنة. قال ابن جبير:

"وليس يؤتمن فيها كلها سوى المغاربة الغرباء، لأنهم قد علا لهم بهذا البلد صيت في الأمانة، وطار لهم فيها ذكر، وأهلها لا يأتمنون البلديين"(8).

***

ومن المفيد للبحث هنا أن نرى عبر الزمن صورة المسجد الجامع بعد مرور خمسة قرون من الزمن، ومن حسن الحظ أن يكون العلامة الكبير أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني المالكي المذهب (المتوفى سنة 1041هـ) من أصل مغربي أيضاً، فقد أم دمشق وأملى صحيح البخاري على الألوف من العلماء، وطلبة العلم، وجماهير لا تحصى من الناس الذين اجتمعوا للالتقاء بهذا العالم المغربي الكبير.

والمعروف عنه أنه ارتحل إلى فاس مرتين، وورد إلى مصر، وانتقل إلى دمشق سنة 1039هـ، فأنزلته المغاربة في مكان لا يليق به، فأرسل إليه أحمد بن شاهين مفتاح المدرسة الجمقمقية، وكتب مع المفتاح بعض الأبيات الشعرية مرحباً بقدومه(9).

وصف المحبي المقري وهو يلقي درساً في الحديث النبوي من صحيح البخاري، بعد صلاة الصبح تحت قبة النسر في هذا المسجد الجامع، فقال:

"ولما دخل إليها (أي دمشق) أعجبته، فنقل أسبابه إليها، واستوطنها مدة، وأملى صحيح البخاري في الجامع الأموي، تحت قبة النسر، بعد صلاة الصبح. ولما كثر الناس بعد أيام

خرج إلى صحن الجامع، تجاه القبة المعروفة بالباعونية، وحضره غالب أعيان دمشق. وأما الطلبة فلم يتخلف منهم أحد، وكان يوم ختمه حافلاً جداً، اجتمع فيه الألوف من الناس، وعلت الأصوات بالبكاء، فنقلت حلقة الدرس إلى الصحن، إلى الباب الذي يوضع فيه العلم النبوي في الجمعات: من رجب، وشعبان، ورمضان، وأتى له بكرسيّ الوعظ، فصعد عليه، وتكلم بكلام في العقائد والحديث، ولم يسمع نظيره أبداً، وتكلم على ترجمة البخاري، وأنشده له بيتين، وأفاد أن ليس للبخاري غيرهما، وهما:

اغتنم في الفراغ فضل ركوع فعسى أن يكون موتك بغته
كم صحيح قد مات قبل سقيم ذهبت نفسه النفيسة فلته

وكانت الجلسة من طلوع الشمس إلى قرب الظهر، ثم ختم الدرس بأبيات قالها حين ودع المصطفى، صلى الله عليه وسلم، وهي قوله:

يا شفيع العصاة أنت رجائي كيف يخشى الرجاء عندك خيبه
وإذا كنت حاضراً بفؤادي غيبة الجسم عنك ليست بغيبه
ليس بالعيش في البلاد انقطاع أطيب العيش ما يكون بطيبه

ونزل عن الكرسي، فازدحم الناس على تقبيل يده، وكان ذلك نهار الأربعاء، سابع عشري رمضان، سنة سبع وثلاثين وألف، ولم يتفق لغيره من العلماء الواردين إلى دمشق ما اتفق له من الحظوة وإقبال الناس، وكان، بعدما رأى من أهلها ما رأى، أن كثر الاهتمام بمدحها، وقد عقد في كتابه (عرف الطيب) فصلاً يتعلق بها، وبأهلها، وأورد في مدحها أشعاراً..."(10).

لن أسترسل مع المحبي في وصف الحب المتبادل بين المقري وأهل دمشق، وذكر المطارحات والمساجلات الشعرية مع علمائها، وشيوخها، وإنما أكتفي من ذلك كله بهذه المقطوعة الشعرية في التغني بمحاسن الشام(11).

محاسن الشام جلت عن أن تقاس بحد
لولا حمى الشرع قلنا ولم نقف عند حد
كأنها معجزات مقرونة بالتحدي

يتضح مما تقدم معنا أن المساجد كانت عامل ازدهار في الثقافة عبر العصور، واستمرت تسهم بنصيب وافر في ازدهار النهضة الفكرية حتى نهاية القرن الرابع الهجري تقريباً، وبدأت تقوم إلى جانبها مدارس ملحقة بها أو مستقلة بعيدة عنها، وكان لها أوقافها، ونظامها، وتقاليدها، وفقهاؤها، ومدرسوها، ومعيدوها، ومفيدوها...

وكان للسلاجقة والفاطميين الفضل في إنشاء المدارس ودور العلم، فقد عرف عن قاضي طرابلس الفاطمي الحسن بن عمار أنه أنشأ مدرسة جامعة على مثال دار الحكمة التي أنشأها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله سنة 400هـ.

سار السلاجقة على سنة وزيرهم نظام الملك، فاهتموا بإنشاء المدارس أيضاً، وقد عرف عن الملك ألب أرسلان أنه إذا وجد عالماً جليلاً شيد له مدرسة تقديراً لعلمه، وأجرى عليها وقفاً لسد خلة المدرسين والمنتجعين للطلب، حتى إذا جاء القرن الخامس الهجري رأينا رشأ بن نظيف بن ما شاء الله أبا الحسن الدمشقي يقيم مدرسة خاصة لتعليم القرآن سنة 44هـ أسماها (المدرسة الرشائية)(12)، وهي فيما نظن أول مدرسة قرآنية في التاريخ الإسلامي.

وحكم الزنكيون الأتراك بلاد الشام، فكثرت فيها دور العلم، وقد عرف عن نور الدين أنه كان لا يتصرف بشيء من هدايا الملوك الكثيرة، بل كان إذا اجتمع منه شيء يصرفه ويخرجه إلى مجلس القاضي، فيحصل ثمنه في عمارة المساجد المهجورة(13).

ولم يقتصر اهتمامه على بيوت الله، وإنما تجاوزه إلى إنشاء المدارس المنظمة التي كثرت في هذا العصر كثرة غريبة، فاستدعى من سنجار شرف الدين بن أبي عصرون، أحد أعيان العلماء في عصره، وبنى له المدارس في حلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، وفوض إليه أن يولي فيها التدريس من يشاء، ولم يكتف شرف الدين بما شيده نور الدين، وإنما أنشأ مدرستين أولاهما بحلب وأخراهما بدمشق(14).

كما اهتم نور الدين بالحديث النبوي الشريف، فأنشأ مدارس خاصة به، ولم يعرف في التاريخ الإسلامي من سبقه إلى ذلك، وقد سميت باسمه، نذكر من مدارس الحديث الجديدة (النورية الكبرى) و (النورية الصغرى).

أما النورية الكبرى فقد وقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بالحديث وقوفاً كثيرة، وولي مشيختها أمام المحدثين في زمانه الحافظ ابن عساكر.

وصف ابن جبير هذه المدرسة خلال زيارته دمشق، فذكر أنها قصر من القصور الأنيقة، ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً، وبها قبره(15).

وأما النورية الصغرى(16) فقد كانت خاصة بالحنفية، وتقع بجانب القلعة، وممن درس فيها بهاء الدين عياك.

كما أنشأ في حماة مدرستين باسمه، وبنى فيها جامعاً كبيراً على ضفة نهرها العاصي هو (الجامع النوري)، وألحق به بيمارستانا خاصاً باسم (البيمارستان النوري). وجدير بالذكر أن الداخل في الجامع يشاهد في أعلى الباب قطعة حجرية ضخمة نقش عليها أن أحد الملوك وقف على طلبة العلم خمسة عشر ألف دينار في كل عام استجلاباً لأدعيتهم، وإعانة لهم على طلب العلم(17).

وصف ابن جبير ذلك خلال مروره بحماة فقال: "ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل، ولها ثلاث مدارس، ومارستان على شط النهر بإزاء الجامع الصغير"(18).

اهتم الأيوبيون، بعد الزنكيين، بإنشاء دور العلم في الشام ومصر وغيرهما، وقد أشار إلى ذلك ابن جبير أيضاً، فذكر أنه رأى بدمشق عندما زارها "نحو عشرين مدرسة، وبها مارستانان قديم وحديث...

وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام، والمدارس كذلك"(19).

كما أنشأ صلاح الدين الأيوبي المدارس الكثيرة في الشام ومصر، نذكر منها (المدرسة الصلاحية) التي أنشأها في القدس الشريف، وهي غير (المدرسة الصلاحية) القاهرية التي أنشأها بجوار ضريح الإمام الشافعي، وقد سماها السيوطي بـ (تاج المدارس).

درس في هذه المدرسة كبار علماء العصر، أمثال، تقي الدين بن رزين، وتقي الدين بن بنت الأعز، وتقي الدين بن دقيق العيد وغيرهم.

وأنشأ أخوه الكبير أسد الدين شيركوه مدرسة في دمشق للحنفية والشافعية، وهي في الشرق القبلي، ظاهر دمشق(20)، كما أن المظفر تقي الدين عمر، ابن أخي صلاح الدين، أسهم بدوره في إنشاء دور العلم، فقد عرف عنه أنه عندما كان في القاهرة اشترى منازل الخليفة الفاطمي المعز، وجعلها مدارس، وفعل مثل ذلك لما عاد إلى الشام، فأنشأ المدرسة التقوية، داخل باب الفراديس، وهي من أجمل مدارس دمشق، وكانت تسمى (نظامية الشام)، وله في حماة "مدرسة

هائلة" كما يقول النعيمي، دعيت باسم (المدرسة المظفرية)(21)، وقد تم بناؤها بعد أن أصبح ملكاً عليها.

سار خلفاء صلاح الدين على خطته في بناء المدارس، فقد عرف عن ابنه الملك الظاهر، صاحب حلب، أنه عمرت في أيامه المدارس الكثيرة، منها (الظاهرية البرانية) التي أنشأها بدمشق سنة 613هـ. وجدير بالذكر أنه سمع بالاسكندرية من ابن عوف، وبمصر من ابن بري، وبدمشق من الفضل البانياسي، وحدث بحلب، قبل أن يلي سلطنتها، ثلاثين عاماً.

أجرى الظاهر الأيوبي الأوقاف الكثيرة على المدارس، فعندما أنشأ قاضيه بهاء الدين بن شداد (المدرسة الصاحبية) قرر لها إقطاعاً جيداً، واستدعى الفقهاء من كل الأمصار ليجعل من حلب الشهباء كعبة للعلم والعلماء.

وجاء الملك العادل، فأسس المدارس الكثيرة، نذكر منها (العادلية الكبرى) و (العادلية الصغرى). أما العادلية الكبرى فيذكر ابن شداد أن نور الدين أول من أنشأها، وتوفي قبل اكتمال بنائها، ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين، وتوفي أيضاً قبل إتمام بنائها، فأتمها من بعد ولده الملك المعظم، وأوقف عليها الأوقاف، غير أن النعيمي يخالف رأي ابن شداد، ويقول: "رأيت أنا ما كان بناه نور الدين وما بعده منها، وهو موضع المسجد والمحراب الآن، ثم لما بناه الملك العادل أزال تلك العمارة، وبناه هذا البناء المتقن المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس". ويعلق النعيمي(22) بعد ذلك مشيراً إلى المكان الذي صنف فيه كتابه (الدارس في تاريخ المدارس).

وأما (العادلية الصغرى) فقد أنشأتها ابنته زهرة خاتون، وشرطت للمدرسة مدرساً، ومعيداً، وإماماً، ومؤذناً، وبواباً، وقيماً، وعشرين فقيهاً، ووقفت الجهات المذكورة...، منها ما هو على مصالح المدرسة ومصارفها(23).

وأنشأ الملك المعظم ابن الملك العادل (المدرسة المعظمية) للحنفية، لأنه كان يشتغل على مذهب أبي حنيفة، وهو فقيه وأديب، حفظ القرآن، وسمع المسند كله لابن حنبل، وشرح الجامع الكبير في عدة مجلدات، وأول من درس في هذه المدرسة مجد الدين قاضي الطور.

وإذا كان نور الدين رائد المهتمين بالحديث النبوي، وإنشاء مدارسه الخاصة به في العصر الزنكي، فلاشك في أن الأشرف موسى بن العادل كان رائدهم في العصر الأيوبي الذي تلاه. إذ أنشأ مدرستين خاصتين بالحديث النبوي الشريف، وهما (دار الحديث الأشرفية الجوانية) و (دار الحديث الأشرفية البرانية).

أما دار الحديث الأولى فكانت في الأصل دار الأمير صارم الدين قايماز بن عبد الله النجمي، فاشتراها الملك الأشرف، وجعلها داراً لدراسة الحديث. وكان إلى جانبها حمام، فخربه وبناه مسكناً للشيخ المدرس بها، وقد تم بناؤها سنة 630هـ، وتم افتتاحها ليلة النصف من شعبان، وأملى بها الشيخ تقي الدين بن الصلاح الحديث، وقد حفظ فيها نعل النبي (ص)، وجلس في هذه السنة يسمع صحيح البخاري.

درس في هذه المدرسة كبار علماء الشام من المحدثين وغيرهم مثل: ابن الحرستاني، وأبي شامة المقدسي، والنواوي، وابن الوكيل، وابن الزملكاني، والحافظ المزي، وابن كثير، والسبكي، وغيرهم(24).

وأما دار الحديث الثانية فكانت في سفح جبل قاسيون، على حافة نهر يزيد، أحد فروع بردى، بناها أيضاً الأشرف للمحدث العالم الحافظ جمال الدين المقدسي (المتوفى سنة 659هـ) وجعله شيخها، وقرر له معلوماً قبل البدء بالتدريس فيها، فمات قبل الفراغ من بنائها، وأول من درس بها القاضي شمس الدين بن أبي عمر(25).

وجاء بعد ذلك الملك الناصر يوسف بن العزيز، وملك دمشق وحلب معاً، وقد أسس (دار الحديث الناصرية)(26)، و (المدرسة الناصرية الجوانية)، وهي داخل باب الفراديس، واقعة شمالي الجامع الأموي، وتم الفراغ من بنائها سنة 653هـ، وكان أول من درس بها قاضي القضاة صدر الدين بن سني الدولة، ثم ابنه نجم الدين من بعده، ثم القاضي شمس الدين بن خلكان، ثم الشيخ شمس الدين الفارقي(27).

هكذا أسهم الأيوبيون في بناء دور العلم، بالرغم من قصر مدة حكمهم، ونختتم حديثنا عنهم بذكر الملك الصالح نجم الدين أيوب، فقد أنشأ مدرسة، سماها (المدرسة الصالحية)، وعندما احتفل بافتتاحها أنشد الشاعر أبو الحسين الجزار(28).

ألا هكذا يبني المدارس من بنى ومن يتغالى في الثواب وفي البنا

كما جرت العادة عند افتتاح مدرسة ما أن يقام احتفال يحضره السلطان، والأمراء، والفقهاء، والقضاة، ويمد سماط للمدعوين، وبعد انتهاء الدعوة يخلع السلطان على كل من عمل في بناء هذه المدرسة، ويعين لها المدرسين والمعيدين، ويحبس عليها الأوقاف الكثيرة كما رأينا لكي يدفع نفقات للتدريس والطلبة، ويلحق بها دور الكتب التي تساعد الباحثين على الدراسة ومتابعة البحث العلمي.

ومن المفيد هنا أن نورد حديث ابن جبير في رحلته عن كثرة الأوقاف التي رآها ببلاد الشام:

"ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة: من بساتين، وأرض بيضاء، ورباع، حتى أن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه، وكل مسجد يستحدث بناؤه، أو مدرسة، أو خانقة، يعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها، وبساكنيها، والملتزمين لها، وهذه أيضاً من المفاخر المخلدة"(29).

لم يقتصر الأمر في بناء المدارس، ودور العلم، ودور الحديث، على الملوك والسلاطين الأيوبيين، وإنما تعداهم إلى نسائهم العالمات والأميرات الخواتين. ولم نعرف لهذا التطور مثيلاً في التاريخ الإسلامي قديماً أو حديثاً.

ذكر ابن جبير ذلك، فقال: "ومن الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد، أو رباط، أو مدرسة، وتنفق فيها الأموال الواسعة، وتعين لها من مالها الأوقاف"(30).

نذكر من الخواتين أربعاً:

الخاتون الأولى منهن ست الشام أنشأت مدرستين للشافعية: وهي (الشامية البرانية) و (الشامية الجوانية).

أما الشامية البرانية فهي من أكبر المدارس، وأعظمها، وأكثرها فقهاء، وأكثرها أوقافاً(31)، وقد اشترطت في نص وقفها ألا يجمع المدرس بينها وبين غيرها، وكان أول من درس فيها شرف الدين عبد الله بن علي القرشي الدمشقي سنة 615هـ.

وأما الشامية الجوانية ففيها توفيت ست الشام، ونقلت إلى تربتها في الشامية البرانية. وجدير بالذكر أنها قد وقفت بعض أوقافها على الفقهاء المشتغلين بها، وعلى المدرسين فيها، واشترطت أن يكونوا من أهل الخير والعفاف والسنة، وغير منسوبين إلى شر أو بدعة(32). كما حددت عدد المستفيدين، وشرطت ألا يزيد عدد الفقهاء والمتفقهة في هذه المدرسة على عشرين رجلاً، من جملتهم معيدها وأمامها، وذلك بالإضافة إلى المدرس، والمؤذن، والقيم(33).

والخاتون الثانية، من هؤلاء الخواتين، من غير الأيوبيات، زمرد خاتون ابنة الأمير جاولي، وزوج تاج الملوك بوري، وكانت من العالمات، تحفظ القرآن، وتروي الحديث، وتنسخ الكتب، وقد بنت (المدرسة الخاتونية البرانية) للحنفية، في صنعاء دمشق، وهو مكان مطل على وادي

الشقراء، وهذه المدرسة من كبار مدارس الحنفية وأجودها معلوماً(34).

والخاتون الثالثة هي الخاتون عصمة الدين بنت الأمير معين الدين أنر، زوج نور الدين بن زنكي، ثم زوج صلاح الدين الأيوبي من بعده، وكانت مدرستها كسابقتها خاصة بالحنفية(35).

والخاتون الرابعة هي الخاتون مؤنسة خاتون، بنت الملك المظفر تقي الدين عمر، ابن أخي صلاح الدين الأيوبي، وصاحب حماة، وقد أنشأت فيها مدرسة خاصة بها، سميت باسمها (الخاتونية)، ووقفت عليها وقفاً جيداً، وكتباً كثيرة(36).

ولا شك في أن اهتمام هؤلاء النساء الخواتين ببناء دور العلم يرجع إلى أن هذا العصر تميز بالعناية الكلية برواية الحديث ودرايته.

والغريب حقاً هو انصراف النساء إلى الاهتمام الكبير بالحديث النبوي الشريف.

ولم نعهد لذلك مثيلاً في تاريخ الدراسات الإسلامية، ويمكن أن نفسره بأنه كان يقظة عربية استهدفت الحفاظ على التراث الإسلامي بعد أن حاولت طمسه والقضاء عليه الفئات الطامعة القادمة من الشرق والغرب على السواء من الصليبيين والتتار.

ولسنا بمبالغين أن قلنا أن هذه المحاضرة تضيق عن استيعاب أسماء المحدثات اللواتي عرفن في هذا العصر بله أسماء المئات من الحفاظ المحدثين.

نذكر من المحدثات مسندة الشام المحدثة أم الفضل كريمة بنت عبد الوهاب الزبيرية، المعروفة بـ (بنت الحبقبق)، وهي المحدثة المشهورة (المتوفاة سنة 641هـ).

والمحدثة فاطمة بنت عساكر (المتوفاة سنة 683هـ).

والمحدثة فاطمة بنت أحمد بن صلاح الدين يوسف (المتوفى سنة 678هـ).

والمحدثة زينب بنت علي بن أحمد بن فضل الصالحية.

والمحدثة عائشة بنت عيسى بن الموفق المقدسي (المتوفاة سنة 697هـ).

والمحدثة خاتون بنت يونس بن محمد ابن العادل (المتوفاة سنة 697هـ).

والمحدثة ست الشام، أم محمد، صفية بنت الشيخ المحدث مجد الدين أحمد بن ميسرة الأزدي (المتوفاة سنة 704هـ).

والمحدثة السيدة الجليلة، أم محمد، شهدة بنت الصاحب كمال الدين بن العديم (المتوفاة سنة 709هـ)، والمعروف في سيرتها أنها سمعت بحلب من الكاشفري حضوراً، وأجازها جماعة من المحدثين(37)، وقد انصرفت هذه المحدثة إلى الرواية بعد أن تزهدت، فتركت ما كانت عليه من اللباس الفاخر، وانفردت بالرواية عن الشيخ ضياء الدين عمر بن سعيد الموصلي حضور، ولم يرو عنه سواها. وهذا التفرد في رواية بعض الأحاديث على جانب كبير من الأهمية في السماع والإجازة العلمية.

ومن المحدثات أخيراً ست الوزراء، المحدثة الشيخة المسندة، رفيقة الحجار، أم عبد الله، بنت القاضي شمس الدين عمر بن المنجا، التنوخية، الدمشقية، الحنبلية (المتوفاة سنة 717هـ). وكانت سمعت صحيح البخاري، ومسند الشافعي من أبي عبد الله الزبيدي، وسمعت من والدها جزءين، وعمرت طويلاً، وروت الكثير، وحجت مرتين، وقصدت بعد ذلك الديار المصرية. والمعروف عنها أنها روت الصحيح بدمشق والقاهرة مرات عديدة، وقرأ عليها الحافظ أبو عبد الله الذهبي مسند الشافعي، وهي آخر من حدث بالكتاب، وسمع منها خلق كثير(38).

ينبغي أن نشير أخيراً إلى أن الفاطميين في مصر لم يكونوا يهتمون بإنشاء المدارس ودور العلم كما هو الحال في بلاد الشام لأسباب كثيرة، وقد ذكر القلقشندي ذلك خلال حديثه عن مساجد مصر ومدارسها، فقال: "وأما مدارسها فكانت، في الدولة وما قبلها، قليلة الوجود، بل تكاد أن تكون معدومة، غير أنه كان بجوار القصر دار تعرف بـ (دار العلم) خلف خان مسرور، كان داعي الشيعة يجلس فيها، ويجتمع إليه من التلامذة من يتكلم في العلوم المتعلقة بمذهبهم، وجعل الحاكم لها جزءاً من أوقافه..."(39).

لكن الأفضل ابن أمير الجيوش أبطل دار العلم هذه لاجتماع الناس فيها والخوض في المذاهب(40).

وتحدث القلقشندي بعد ذلك عن جماعة من العلماء، أطلق الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس "لكل منهم كفايته من الرزق، وبنى لهم داراً، بجانب الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة حلقوا بالجامع بعد الصلاة، وتكلموا في الفقه، وأبو يعقوب، قاضي الخندق، رئيس الحلقة والملقي عليهم إلى وقت العصر، وكانوا سبعة وثلاثين نفراً"(41).

أما في العصر الأيوبي فقد تغير الحال كما يقول القلقشندي: ثم جاءت الدولة الأيوبية فكانت الفاتحة لباب الخير، والغارسة لشجرة الفضل(42)".

واستطرد بعد هذا الحديث فذكر لنا أن الملك الأيوبي الكامل محمد بن العادل أبي بكر قد ابتنى (دار الحديث الكاملية) سنة 622هـ بين القصرين، وقرر بها مذاهب الأئمة الأربعة وخطبه، "ووقف على المدرسة المذكورة"(43).

اهتم سلاطين المماليك "وأكابر الأمراء وغيرهم" بإنشاء دور العلم، مقتدين بمن سلف من سادتهم الأيوبيين، وقد تنافسوا في إنشائها، فازداد عددها زيادة كبيرة جداً في الشام ومصر، حتى إن الرحالة المغربي ابن بطوطة تعجب من كثرتها، وذكر أنه لا يحيط أحد بحصرها لوفرتها(44). كما أوضح القلقشندي أن هؤلاء السلاطين المماليك بنوا "من المدارس ما ملأ الاخطاط وشحنها"(45)، "فأربت على ذلك وزادت عليه"(46).

نذكر من هؤلاء السلاطين الظاهر بيبرس، فقد ابتنى (المدرسة الظاهرية)(47). القديمة سنة 662هـ، وهي واقعة بين القصرين، بجوار (المدرسة الصالحية).

أما (المدرسة الظاهرية الجوانية) فقد ابتناها في دمشق لتكون له تربة بعد موته، وكانت من قبل دار العفيفي، وأصبحت سكناً لنجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، وجد الملوك الأيوبيين، فاشتراها وبناها مدرسة ودار حديث، سنة 670هـ، واستغرق بناؤها سبع سنين، ولم تكتمل، وابتدأ التدريس فيها قبل إتمامها للحنفية والشافعية، وحضر درسها الأول يوم افتتاحها نائب السلطنة في دمشق أيدمر الظاهري، ومعه العلماء والقضاة. وأول من درس فيها من الحنفية الشيخ صدر الدين سليمان، ومن الشافعية الشيخ رشيد الفارقي. وقد أمر بإكمالها بعد ذلك السلطان قلاوون بعد وفاة مؤسسها الظاهر.

أسهم المنصور قلاوون في إنشاء المدارس، فابتنى (المدرسة المنصورية)، "وجعل قبالتها تربة سنية"(48)، وألحق بها (البيمارستان المنصوري)، وأمر أن يدرس فيها الفقه على المذاهب الأربعة، يضاف إلى ذلك درس في التفسير، ودرس في الحديث، ودرس في الطب. وكان الاحتفال بإتمامها مشهوداً، إذ حضر السلطان نفسه، وأنشد الشاعر البوصيري قصيدة، استهلها بقوله(49):

أنشأت مدرسة ومارستانا لتصحح الأديان والأبدانا

وابتنى الناصر محمد بن قلاوون (المدرسة الناصرية) بجوار البيمارستان السابق ذكره، وقد تم الفراغ من بنائها سنة 703هـ.

يذكر المقريزي أنه أدرك هذه المدرسة، وهي محترمة للغاية، يحرسها عدد من الطواشية، ولا يسمح بدخولها لأي إنسان دون الاستئذان.

وابتنى الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون (المدرسة العظمى) تحت القلعة. وصفها القلقشندي بقوله: "وهي التي لم يسبق إلى مثلها، ولا سمع في مصر الأمصار بنظيرها. يقال: إن إيوانها يزيد في القدر على إيوان كسرى بأذرع"(50).

وابتنى ابن أخيه الأشرف شعبان بن حسين (المدرسة الأشرفية) بالصوة تحت القلعة، ومات ولم يكملها(51) وقد هدم الناصر فرج هذه المدرسة لتسلطها على القلعة سنة 814هـ، قال القلقشندي: "ولم نعهد مدرسة قصدت بالهدم قبلها"(52).

وابتنى الظاهر برقوق (المدرسة الظاهرية) بين القصرين، بجوار (المدرسة الكاملية)، فجاءت في نهاية الحسن والعظمة، وجعل فيها خطبة. تحدث القلقشندي عنها، وذكر أنه "قرر فيها صوفية على عادة الخوانق، ودروساً للأئمة، وتغالى في ضخامة البناء، ونظم الشعراء فيها..."(53).

***

وجدير بالذكر هنا أن العصر المملوكي تميز بظهور مدارس طبية، لأول مرة، بالإضافة إلى انتشار البيمارستان وتعددها في البلد الواحد أكثر من ذي قبل. وقد سبقت بلاد الشام غيرها في هذا المضمار.

نذكر من هذه المدارس الطبية (المدرسة الدخوارية)(54) الواقعة قبلي الجامع الأموي، وقد أنشأها مهذب الدين عبد الرحيم بن حامد المعروف بـ (الدخوار) سنة 631هـ.

والمدرسة الطبية الثانية هي (المدرسة اللبودية النجمية)(55)، وقد أنشأها نجم الدين يحيى بن محمد اللبودي سنة 644هـ.

والمدرسة الطبية الثالثة هي (المدرسة الدنيسرية)(56)، الواقعة غربي البيمارستان النوري، وقد أنشأها رئيس الطب الحاذق، أبو عبد الله، عماد الدين، محمد بن عباس الربعي، واسم هذه

المدرسة نسبة إلى (دنيسر) وهي المدينة التي ولد فيها مؤسسها وصاحبها.

يرجع الفضل في إنشاء هذه المدارس الطبية إلى الأطباء الحكماء أنفسهم، ولم أعرف أن أحداً من السلاطين قام بمثل ذلك.

وكانت تمد البيمارستانات الكثيرة بالمتخرجين منها.

تعددت البيمارستانات في بلاد الشام، ويندر أن تخلو مدينة منها كما رأينا. أما دمشق وبها مارستانان، قديم وحديث، والحديث أحفلهما وأكبرهما، وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً، وله قومة بأيديهم الأزمة(57) المحتوية على أسماء المرضى، وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك، والأطباء يبكرون إليه في كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية، حسبما يليق بكل إنسان منهم.

والمارستان الآخر على هذا الرسم، لكن الاحتفال في الجديد أكثر، وهذا القديم هو غربي الجامع المكرم.

وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج، وهم في سلاسل موثقون..."(58).

واختتم ابن جبير حديثه عن هذين المارستانين بقوله: "وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام"(59).

***

أما في مصر فقد ذكر محيي الدين بن عبد الظاهر "أن البيمارستان كان أولاً بالقشاشين على القرب من الجامع الأزهر"(60).

ولما تملك السلطان صلاح الدين مصر أنشأ بيمارستانا في القاعة التي بنيت في عهد العزيز بن المعز، "وهو البيمارستان العتيق داخل القصر"(61).

وابتنى بعد ذلك المنصور قلاوون "دار ست الملك أخت الحاكم المعروفة بـ (الدار القطبية) بيمارستانا في سنة ثلاث وثمانين وستمائة بمباشرة الأمير علم الدين الشجاعي، وجعل من داخله المدرسة المنصورية... وهو من المعروف العظيم الذي ليس له نظير في الدنيا، ونظره رتبة سنية يتولاه الوزراء ومن في معناهم"(62) كما ذكر أن هذا البيمارستان معروف بكثرة أوقافه، وسعة

إنفاقه، وتنوع الأطباء والكحالين والجراحين(63).

القسم الثاني : العلم والعلماء

يحسن بنا بعد هذا العرض المسهب عن المدارس ودور العلم على اختلافها وأهميتها الكبرى في الثقافة الإسلامية وتطورها عبر العصور، أن نتحدث عن أعضاء الهيئة العلمية، وطبيعة النظام التربوي المتبع فيها، وسوف نرى أن نظام الجامعات العالمية الحالي، ليس في واقع الأمر إلا النظام المطبق بصورة مجملة، وسوف تتضح صورته من خلال بيان هذا النظام بشكل مفصل.

كان لكل دار من دور العلم: مدرسوها ومعيدوها، ومفيدوها، يضاف إليهم الإمام، والمؤذن، والخادم، والقيم، وخازن الكتب.

هذا كله عدا الفقهاء والمتفقهة، والشداة من طلبتها.

المدرس:

كان، على رأس كل مدرسة، مدرس أو أكثر، ويتم تعيينه عادة بمرسوم سلطاني، يصدر عن السلطان، أو من ينوب عنه بتعيينه، ويكون، بالطبع، من أقدم العلماء المدرسين، وأكفئهم، وأرسخهم في العلم والدين.

أشار السبكي إلى أن العلماء "فرق كثيرة، منهم المفسر، والمحدث، والفقيه، والأصولي، والمتكلم، والنحوي، وغيرهم..."(64).

واستطرد بعد ذلك فتحدث عن الواجبات الملقاة عليهم، فقال: "ويجمع الكل أنه حق عليهم إرشاد المتعلمين، وإفتاء المستفتين، ونصح الطالبين، وإظهار العلم للسائلين..، وألا يقصدوا بالعلم الرياء، والمباهاة، والسمعة، ولا جعله سبيلاً إلى الدنيا..."(65).

ويتحدث السبكي بعد هذا الاستطراد عن طائفة من العلماء الذين غرتهم الحياة الدنيا، فأقسم متعجباً:

"وحق الحق، إني لأعجب من عالم يجعل علمه سبيلاً إلى حطام الدنيا، وهو يرى كثيراً من الجهال وصلوا من الدنيا إلى ما لا ينتهي هو إليه، فإذا كانت الدنيا تنال مع الجهل، فما بالنا نشتريها بأنفس الأشياء، وهو العلم؟!؟"(66).

ثم يحذرنا بعد ذلك من التردد على أبواب السلاطين لئلا نفسد العلم، ويذكرنا أن سفيان الثوري (المتوفى سنة 161هـ) كان ينبه العالم ويقول: "إن دعوك لتقرأ عليهم (قل هو الله أحد)، فلا تمض، ولا تقرأها، وبالجملة أنت أخبر بنفسك، فابحث عنها..."(67).

لا نستغرب أن رأيناه يرفض طلب الخليفة العباسي ليلي الحكم، فأبى ذلك، وخرج من الكوفة ليقيم في مكة والمدينة، ثم طلبه المهدي من بعد للأمر نفسه، فتوارى، وانتقل إلى البصرة، فمات فيها وهو مستخف.

ولنا في قصة الإمام الكبير البخاري (المتوفى سنة 256هـ) دليل آخر على موقف العلماء من بعض أولي الأمر الذين يرون أن دولة السياسة أعظم من سلطان العلم.

عاد البخاري إلى مسقط رأسه في أخريات حياته بعد رحلته العلمية الطويلة في خراسان، والعراق، والحجاز، ومصر، والشام، وجمع خلال ذلك نحو ستمائة ألف حديث، اختار منها ما وثق بروايته ورواته في صحيحه المشهور، ولم يكن ليثبت أي حديث قبل أن يصلي ركعتين.

طلب منه أمير بخارى خالد بن أحمد، وهو من الظاهرية، أن يأتيه بالجامع الصحيح والتاريخ الكبير وغيرهما، ليحدثه ويسمع منه في قصره، فأجابه بقوله المشهور:

"أنا لا أذل العلم، ولا أحمله إلى أبواب الناس، فإن كانت إلى شيء منه حاجة، فأحضرني في مسجدي، أو في داري، وإن لم يعجبك، فأنت سلطان فامنعني من الجلوس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة، لأني لا أكتم العلم لقول النبي (ص): "من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار)، فكان سبب الوحشة بينهما هذا"(68).

كما رفض بعد ذلك أن "يعقد مجلساً لأولاده لا يحضرهم غيرهم" وقال: "لا يسعني أن أخص بالسماع قوماً دون قوم"(69) وكان هذا سبباً في نفيه عن البلد.

أكتفي بهذين الخبرين عن الإمامين الثوري والبخاري وموقفهما لصون قدسية العلم وكرامة العلماء. وموقف هؤلاء من السلاطين والأمراء الذين لا يقيمون وزناً للعلم، ولذلك نجد أن المدرس بشكل عام كان مهيب الجانب، وموفور الكرامة، وله من الوقف ما يغنيه، وذلك وفق شروط الواقف.

قد نعجب لو أردنا هنا بعض الشروط المتعلقة بأحوال المدرسين ودرجاتهم والمعيدين وعددهم وواجباتهم، والطلبة وأصنافهم وما يترتب عليهم.

يذكر ابن دقماق في حديثه عن المدرسة الطيبرسية التي أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس ما نصه: "ثم وقفها مدرسة للفقهاء الشافعية والمالكية، يجلسون (أي الشافعية) في الإيوان الغربي، والمالكية في الإيوان الشرقي، ورتب من كل مذهب مدرساً ومعيداً، وخمسة عشر طالباً، وقرن الإمامة لمعيد الشافعية، والمنزلين علوها للمدرسين، وعمر مكتبا للسبيل، وشرط لكل مدرس ستين درهماً، ولمعيد الشافعية الإمام في كل شهر أربعين درهماً، ولمعيد المالكية في الشهر أربعين درهماً"(70).

يتضح مما تقدم أن الوقف أمن للمدرسين وغيرهم النفقات المعاشية، كما خصص لهم المسكن والمكتبة وغير ذلك مما يحتاجون إليه.

وقد ينوب المعيد عن المدرس في بعض الأحوال، وخاصة حين لا تتحقق شروط الواقف في المدرس المرشح للتدريس. ذكر السيوطي في معرض حديثه عن (المدرسة الصلاحية): "أنها خلت من مدرس ثلاثين سنة، واكتفى فيها بالمعيدين"(71).

يؤكد هذا النص الأهمية والدقة في اختيار المدرس الكفء المناسب كما يشترط الواقف في المذهب والعلم والسيرة الذاتية.

كما وضح السبكي بعد ذلك واجبات المدرس في تدريس الطلاب، فذكر الأسلوب الذي يجب أن يتبعه في إلقاء الدروس، وخلص إلى القول: "وحق عليه أن يحسن إلقاء الدروس وتفهيمه للحاضرين، ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات، بل يدربهم، ويأخذهم بالأهون فالأهون إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق"(73).

ويختتم السبكي حديثه، فيذكر المختصين من طلبة الدراسات العليا المنتهين، فيقول: "وإن كانوا منتهين، فلا يلقي عليهم الواضحات، بل يدخل بهم في مشكلات الفقه، ويخوض عبابه"... (73).

المعيد:

لا بد في المدرسة من وجود معيد واحد، أو أكثر، وذلك بحسب شرط الواقف، وقد أبرز السبكي دور المعيد وأهمية عمله في مجال التدريس، وليس من قبيل المصادفة أن يتضمن عنوان كتابه هذا اللفظ، وهو (معيد النعم ومبيد النقم)، وإن كان المقصود منه غير ما نحن في صدده.

والمعروف عنه أنه الذي يساعد المدرس، وينوب عنه في حال غيابه أحياناً وقد يكتفي ليشغل وظيفة المدرس في حال الاضطرار، وذلك حين لا يوجد العالم المناسب لتولي وظيفة التدريس.

قال السبكي: "المعيد عليه قدر زائد على سماع الدرس: من تفهيم بعض الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة، وإلا فهو والفقيه سواء، فما يكون قد شكر الله تعالى على وظيفة الإعادة"(74).

المفيد:

المراد من المفيد هو الطالب النابغة الذي يتفوق على أقرانه، وعليه أن يفيدهم، كما يقول السبكي: "عليه أن يعتمد ما يحصل به في الدرس (من) فائدة: من بحث زائد على بحث الجماعة ونحو ذلك؟ وإلا ضاع لفظ الإفادة وخصوصيتها، وكان أخذه العوض في مقابلتها حراماً"(75).

استخدم القلقشندي لفظ (المفيد) ثلاث مرات في غير ما هو عليه هذا المصطلح بالضبط، فالأولى والثانية في معرض بعض إجازاته: "... الشيخ، الإمام، العالم، العامل، الفاضل، (المفيد)، البارع، علم (المفيدين)"(76).

والثالثة في معرض استشهاده بنص إجازة أخرى: "العالي، المولوي، العالمي، الفاضلي، البليغي، (المفيدي)، المفوهي الشمسي، العمري"(77).

المنتهي:

هو الفقيه المنتهي من جماعة الفقهاء "وعليه من البحث والمناظرة فوق ما على من دونه، فإن هو سكت، وتناول معلوم المنتهي لكونه في نفسه أعلم من الحاضرين، فما يكون شكر الله تعالى حق شكرها"(78).

الفقهاء:

وهم الشداة من فقهاء المدرسة، أي جماعة الطلبة الذين يتفقهون في العلوم ويتعمقون في المعارف، ويكون عددهم محدوداً بحسب شرط الواقف "وعليهم التفهم على قدر أفهامهم، والمواظبة إلا بعذر شرعي"(79).

يؤكد هذا النص أمرين: أولهما تحديد عدد الطلبة الفقهاء، وذلك حرصاً على الفائدة، وثانيهما: التشديد على ضرورة الدوام والمواظبة على الدروس، وهذا الركنان أساسيان وهامان في الدراسة الجامعية.

والوصايا التعليمية، والنصائح التربوية كثيرة جداً. يقول السبكي: "ومن أقبح ما يرتكبونه تحدث بعضهم مع بعض في أثناء قراءة الجزء من الربعة(80)، فلا هم يقرؤون القرآن، ولا هم يسلمون من اللغو في الكلام، فإن انضم إلى ذلك أن قراءة الجزء شرط الواقف عليهم، وأن حديثهم في الغيبة، فقد جمعوا محرمات"(81).

يؤكد هذا القول أن عدم الانتباه في الدرس، والتحدث في غيره، وإهمال المفروض عليهم في شرط الواقف، يوقع الطالب في المحرمات، ذلك لأن المسيء يحجب عن زملائه الفوائد العلمية، كما أنه يرتكب الإثم في هذه الغيبة من الحديث.

ويصف السبكي بعض النماذج من الطلاب الذي لا يلتزمون كما ينبغي بآداب العلم، فيقول: "وربما فتح كتاباً ينظر فيه ولا ينظر لما يقوله المدرس، بل يجلس بعيداً عنه، بحيث لا يسمعه. وهذا لا يستحق شيئاً من المعلوم، ولا يفيده أن يطالع في كتاب، وهو في الدرس، فلو اكتفى الواقف منه بذلك لما شرط عليه الحضور"(82).

يتضح مما تقدم معنا التزام الفقهاء بآداب العلم والبحث في الإسلام، كما لاحظنا أن الطلاب الفقهاء كانوا يتمسكون بآداب العلم والدراسة والبحث، ذلك لأن طبيعة العلم والتعلم في الإسلام تعتمد أصلاً على أن التمسك بأهداب الفضيلة، وقد لاحظنا أن السبكي بحث هذا الموضوع، وعد خلافه داخلاً في باب المحرمات والمنكرات.

كما رأينا أن عددهم كان معيناً بحسب شرط الواقف، بحيث لم يكن يقل عن العشرين ولا يزيد على الثلاثين في معظم الأحيان، وهذا التحديد بالطبع هو المنهج الأمثل المتبع في جامعات العالم في عصرنا الحديث.

وكان الطلبة يفتخرون بدور العلم التي نشؤوا فيها وتخرجوا منها، فيقال مثلاً: فقهاء المدرسة الصلاحية، أو فقهاء المدرسة الفاضلية...

أما الدرجات العلمية فتختلف اختلاف الفقهاء من طلبتها، وذلك بحسب قدمهم في الدراسة، أو تفوقهم على زملائهم. فمنهم الفقيه المفيد، وهو –كما رأينا– مطالب بأبحاث زائدة على بحث الجماعة العامة، وهو يعادل طالب الماجستير في نظامنا الجامعي الحديث، وأقترح أن تتبنى هذا

المصطلح العربي الأصيل. ومنهم الفقيه المنتهي، وعليه من الدرس والبحث والمناظرة فوق ما على من دونه، كما رأينا، وهو يعادل طالب درجة الدكتوراه في النظام الجامعي الحديث(83).

يؤكد هذا كله أن الدرجات العلمية الجامعية الحديثة هي في أصل الوضع والتكوين تأثر واقتباس مستمد من النظام التعليمي الإسلامي، وسوف يتضح معنا مدى هذا التأثر والتأثير من خلال بحث الإجازات العلمية، وبيان ضروبها المختلفة في حقل الثقافة الإسلامية، وهي –كما سوف نرى– أكثر دقة، وأعمق موضوعية مما هو معروف من مثيلاتها في المؤسسات الأكاديمية والجامعية في العصر الحديث.

القارئ:

هو قارئ العشر، ولا بد في كل مدرسة من وجود قارئ يتقن تلاوة القرآن وقراءاته، وقد ذكره السبكي ضمن أعضاء الهيئة التعليمية، وبين وظيفته في المدرسة، فقال: "ينبغي أن يقدم قراءة العشر، فيكون قبل الدرس، وعقيب فراغ الربعة، إذا كان الدرس فيه ربعة تدور، كما هو الغالب، وأن يقرأ آية مناسبة للحال"(84).

هذا يعني أن النظام يحتم استهلال الدرس ببعض الآيات من القرآن الكريم، ويستدرك السبكي قوله مشيراً إلى أن القارئ يجب أن يختار في مطلع كل درس من الآيات ما يوحي بالموضوع الذي سيلقي فيه الدرس. وهذا الالتزام يحتم أن يكون القارئ حسن الإطلاع على معاني القرآن ليتلو القسم المناسب منه في الموضوع المرتقب.

خازن الكتب:

ولا بد في كل مسجد أو مدرسة من وجود مكتبة خاصة وخازن قيم على ما فيها من خزائن الكتب الموقوفة، لأن طبيعة التعليم تقتضي وجودها. قال السبكي يصف خازن الكتب:

"وحق عليه الاحتفاظ بها (أي الكتب)، وترميم شعثها، وحبكها عند احتياجها للحبك، والضنة بها على من ليس من أهلها، وبذلها للمحتاج"(85).

ويستطرد السبكي بعد هذا التعريف الواضح، فيضع للإعارة شروطاً، ويوصي بأن تكون الأفضلية والتقديم للطلاب الفقراء، فيقول:

"وأن يقدم في العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء، وكثيراً ما

يشترط الواقف ألا يخرج الكتاب ألا برهن بحرز قيمته"(86).

يؤكد هذا النص الديموقراطية الإسلامية في التعليم، فهو حق لكل إنسان عاقل، ودور العلم ملك الناس جميعاً، وعلى الرغم من ذلك كله فقد فضل الطلاب الفقراء على الأغنياء في استعارة المصادر والمراجع من المكتبة، ذلك لأن الغني يستطيع ابتياعها مهما غلا ثمنها، وأما الفقير فليس أمامه غير هذه الكتب الموقوفة، وهم أحق بها من غيرهم.

يضاف إلى ذلك أن الواقف كان يشترط عدم إخراج أي كتاب من المكتبة إلا بعد التأمين عليه برهن يعادل قيمة الكتاب.

ويرجع سبب التشديد هنا إلى أن الكتب المخطوطة النادرة كانت عزيزة المنال، وقد لا نجد للكتاب غير نسخة واحدة، فكان لا بد للخازن من الاحتياط والحذر في إعادة الكتب.

الهوامش

(1)ذكر ابن جبير أن أحد الملوك السالفين توفي وأوصى بأن يجعل قبره في قبلة الجامع بحيث لا يظهر، وعين أوقافاً عظيمة تغل كل عام ألفاً وأربع مئة دينار، لقراء سبع القرآن كل يوم، ومما قاله: "وموضع الاجتماع لقراءة هذا السبع المبارك كل يوم، أثر صلاة الصبح، بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة، رضي الله عنهم، ويقال: إن ذلك الموضع هو القبر المذكور. وقراءة السبع لا تتعدى ذلك الموضع متصلاً مع جدار القبلة، إلى الجدار الشرقي...، وبقيت هذه الرسوم الشريفة مخلدة مع الأيام" رحلة ابن جبير، ص 264.

2-ذكر ابن جبير المجتمع الكوثري في مكان آخر، فقال: "والكوثرية التي ذكرناها أيضاً بالجامع المكرم، والمقروءة كل يوم بعد العصر، المعينة لمن لا يحفظ القرآن، كان أصلها أيضاً أن أحد الملوك السالفين، توفي وأوصى بأن يدس قبره في الجامع المكرم، وأوقف وقفاً يغل مئة وخمسين ديناراً في السنة برسم من لا يحفظ القرآن، ويقرأ من سورة الكوثر إلى الخاتمة، فينقسم له أربعون ديناراً، في كل ثلاثة أشهر من السنة" رحلة ابن جبير ص 263.

3-رحلة ابن جبير، ص 254.

() قال ابن جبير: "ومن مناقب نور الدين، أنه كان عين للمغاربة الغرباء الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك، أوقافاً كثيرة..." ص 257.

4-المحضرة: هي المدرسة، ذكر المحاضر أيضاً (رحلة ابن جبير ص 250)

5-رحلة ابن جبير، ص 244، 245.

(6)رحلة ابن جبير، ص 239.

(7)رحلة ابن جبير، ص 258.

(8)المصدر السابق، ص 251.

(9)المحبي: خلاصة الأثر، ج2 ص 305.

(10)المصدر السابق، ج، 2، ص 305.

(11)المصدر السابق، ج2 ص 306.

(12)النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج1 ص 11.

(13)ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج1 ص 281.

(14) النعيمي: الدارس، ج1 ص 401.

(15) رحلة ابن جبير: ص 256.

(16)النعيمي: الدارس، ج1 ص 648.

(17)كرد علي: خطط الشام، ج6 ص127.

(18)رحلة ابن جبير، ص 231.

(19)المصدر السابق، ص 255، 256.

(20) النعيمي: الدارس، ج1 ص 152، و 473.

(21) المصدر السابق، ج1 ص 216.

(22) المصدر السابق، ج1 ص 353.

(23) المصدر السابق، ج1 ص 368.

(24) المصدر السابق، ج1 ص 19.

(25)

(26) المصدر السابق، ج1 ص49

(27) المصدر السابق، ج1 ص 115

(28) المصدر السابق، ج1 ص 459

(29)رحلة ابن جبير، ص 248

(30)رحلة ابن جبير، ص 248

(31)النعيمي: الدارس، ج1 ص 277

(32) المصدر السابق، ج1 ص 302

(33)المصدر السابق، ج1 ص 303

(34)المصدر السابق، ج1 ص 503

(35)المصدر السابق، ج1 ص 507

(36) كرد علي: خطط الشام، ج6 ص 126، والصابوني: تاريخ حماة، ص 111

(37)الصفدي: أعيان العصر (مخطوط) ج3 ق 1 ورقة 227

(38)المصدر السابق، ج3 ق1 ورقة 79

(39)القلقشندي صبح الأعشى، ج3 ص 362

(40) المصدر السابق، ج3 ص 361

(41) المصدر السابق، ج3 ص 363

(42) المصدر السابق، ج3 ص 363

(43) المصدر السابق، ج3 ص 363

(44) رحلة ابن بطوطة، ج1 ص 70

(45) القلقشندي: صبح الأعشى، ج3 ص 364

(46)المصدر السابق، ج3 ص363

(47) السيوطي: حسن المحاضرة، ج2 ص 142، والقلقشندي: صبح الأعشى ج3 ص 363.

(48) المصدران السابقان

(49) السيوطي: حسن المحاضرة، ج2 ص 142

(50) القلقشندي: صبح الأعشى، ج3 ص 363

(51)المصدر السابق، ج3 ص 363

(52) المصدر السابق، ج3 ص 364

(53) المصدر السابق، ج3 ص 364

(54) النعيمي: الدارس، ج1 ص365

(55) المصدر السابق، ج1 ص 127

(56) المصدر السابق، ج1 ص 133

(57) الأزمة: الواحد زمام، وهو هنا السجل.

(58) رحلة ابن جبير، ص 255، 256

(59)المصدر السابق، ص 256

(60)القلقشندي: صبح الأعشى، ج3 ص 365

(61) المصدر السابق، ج3 ص 365

(62)المصدر السابق، ج3 ص 366

(63)

(64)السبكي: معيد النعم، ص 67

(65) المصدر السابق، ص 67

(66) المصدر السابق، ص 68

(67)المصدر السابق، ص 68، 69

(68)البغدادي: تاريخ بغداد، ج2 ص 33

(69) المصدر السابق، ج2 ص 33

(70) ابن دقماق: الانتصار، ج4 ص 96

(71) السيوطي: حسن المحاضرة، ج2 ص 140

(72)السبكي: معيد النعم، ص 105

(73)المصدر السابق، ص 105

(74)المصدر السابق، ص 108

(75)المصدر السابق، ص 108

(76)القلقشندي: صبح الأعشى، ج11 ص 327

(77) المصدر السابق، ج11 ص 328

(78) السبكي: معيد النعم، ص 108

(79)المصدر السابق، ص 108، 106

(80)الربعة: أحد أجزاء القرآن الثلاثين

(81)السبكي: معيد النعم، ص 109

(82) المصدر السابق، ص 109

(83) موسى باشا: ابن نباتة المصري ص 284، والأدب في بلاد الشام، ص 118

(84) السبكي: معيد النعم، ص 109

(85) المصدر السابق، ص 111

(86)المصدر السابق، ص 111

الإجَازات العلميَّة القسم الثالث

(1) الإجازات العلمية الأصيلة

الإجازة لغة مصدر فعل (أجاز)، ويتضمن عدة معان لغوية نصت عليها المعاجم العربية المعتمدة. يقال: (أجاز الشيء) أي: جعله جائزاً. و (الإجازة): الإباحة والتسويغ، و (أجاز الرأي والأمر) أنفذهما. وفي الحديث النبوي: «إني لا أجيز على نفسي شاهداً إلا مني»، وتأتي أيضاً (أجازه) بمعنى أعطاه الجائزة، ومنه الحديث النبوي «أجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم».

وذكر أيضاً أنه مشتق من (جواز الماء)، والجواز هو السقي، يقال: (أجيزونا) أي اسقونا، و (المستجيز) هو المستسقي، و (استجزته فأجاز لي) أي استسقيته فسقاني. قال الراجز(٨٧):

يا صاحب الماء فدتك نفسي عجل جوازي وأقل حبسي

كما يقال: (أجاز الشاعر في قصيدته) أي خالف في أبياتها حركة الحرف الذي يلي حروف الروي. ويقال: (أجاز في الشعر) أي أتم عجز البيت الذي استهله مطارحه بذكر صدره، وطلب منه إجازته، أي إكماله.

تطورت معاني هذا الأصل اللغوي لكثرة استخدامه في مختلف اشتقاقاته الأصلية والفرعية في مصطلح علم الحديث، فأصبح مختلف المعاني ومتعدد الأغراض.

ولا بد لنا هنا من تبيان العلاقة بين السماع والإجازة، وتفضيل أحدهما على الآخر. قال القاسمي: «واختار بعض المحققين تفضيل الإجازة على السماع مطلقاً، وقيل: إنهما سواء. حكى ابن عان في (ريحانة النفس) عن عبد الرحمن أحمد بن بقيّ بن مخلد أنه كان يقول: الإجازة عندي وعند أبي وجدي كالسماع»(٨٨).

وقال الطوفي: «الحق التفضيل، ففي عصر السلف السماع، أولى، وأما بعد أن دونت الدواوين وجمعت السنن، واشتهرت فلا فرق بينهما»(٨٩).

إن الإجازة العلمية، في الاصطلاح، الإذن والترخيص، وعند المحدثين، بالضبط، الإذن في السماع والرواية لفظاً أو كتابة.

وهذا يعني أن مفهوم هذا اللفظ قد طرأ عليه تطور جذري في معناه اللغوي الأصلي. ولا شك أن أهم تطور لحقه هو اقترانه بالحديث النبوي كما رأينا، ذلك لأن سماع الحديث يقتضي عند المحدثين إعطاء الإذن لسامعه وحافظه وراويه حق روايته وفق الشروط المنصوص عليها والمقررة في المصطلح، والمعروف أنّ الإجازة «أحد أقسام المأخذ والتحمل»(٩٠).

أذكر هنا، على سبيل المثال، نص إجازة في الحديث النبوي، نالها الشيخ جمال الدين بن نباتة المصري، كما وردت في الوافي للصفدي:

«أخبرنا الشيخ عز الدين، أبو العز عبد العزيز بن عبد المنعم بن علي الحرّاني رحمه الله، إجازة، (أنا)(٩١) الشيخ أبو الفتوح يوسف بن المبارك، قراءة عليه، وأنا حاضر ببغداد، (أنا) الشيخ أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن عبد الواحد القزاز، قراءة عليه، وأنا أسمع، (أنا) الشيخ أبو الغنائم، عبد الصمد بن علي بن محمد، قراءة عليه، وأنا حاضر، قيل له:

أخبركم أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد الدار قطني، (نا) محمد بن علي بن إسماعيل الإيلي، (نا) أحمد بن عبد المعلى بن يزيد، (نا) حماد بن المبارك، (نا) محمد بن شعيب، (نا) مروان بن جناح عن هشام بن عروة، أنه أخبره عن عروة بن الزبير عن عائشة، زوج النبي r ، أن رسول الله قال: (إن من الشعر لحكمة)(٩٢).

أركان الإجازة

أورد التهانوي ذكر أركان الإجازة الثلاثة وهي: (٩٣) الشيخ (المجيز)، والطالب (المجاز له)، و (لفظ الإجازة)، ولا يشترط القبول فيها.

واستطرد بعد ذلك، فتحدث عن أقسامها وعدد لنا محسناتها اعتماداً على ما اقتبسه من كتاب (خلاصة الخلاصة)، ومما قاله: «ومن محسنات الإجازة أن يكون (المجيز) عالماً بما يجيزه، و (المجاز له) من أهل العلم، وينبغي للمجيز بالكتابة أن يتلفظ بها، فإن اقتصر على الكتابة مع قصد الإجازة صمت».

كما ذكر الزبيدي والقاسمي وغيرهما «أن بعض العلماء كان لا يجيز أحداً إلا إذا استخبره واستمهره، وسأله: ما لفظ الإجازة؟ وما تصريفها، وحقيقتها، ومعناها؟»(٩٤).

ويعلق الزبيدي على هذا الخبر الذي نقله بقوله: «وكنت سئلت فيه، وأنا بثغر رشيد في سنة

١١٦٨هـ، فألفت رسالة تتضمن تصريفها، وحقيقتها، ومعناها، لم يعلق منها شيء الآن بالبال، والله أعلم»(٩٥).

أما القاسمي، فقد أورد ذات الخبر الذي سبق ذكره، وعلَّق عليه بقوله: «وممن نقل هذه القصة السيد مرتضى الزبيدي في (شرح القاموس)، أقول: لا بأس بالإشارة إلى جواب هذه الأسئلة الأربعة»(٩٦).

وكانت إجابته عن هذه الأسئلة الأربعة –المذكورة شافية كافية، ونظراً لأهميتها وطلاقتها بهذا البحث، فإننا سوف نوردها كاملة كما يلي:

«فأما (لفظ الإجازة): فهو مصدر من باب (الإفعال)..

وأما (تصريفها): فـ (أجاز، يجيز، إجازة) كـ (أقام، يقيم، إقامة). وأصلها (إجواز)، نقلت حركة الواو إلى الجيم، لأن الواو حرف علة متحرك، وما قبله حرف صحيح ساكن، وهو أولى بتحمل الحركة، ثم يقال: تحركت الواو بحسب الأصل، وانفتح ما قبلها بعد النقل، فقلبت ألفاً، فالتقى ساكنان: الألف المنقلبة عن الواو، والألف الزائدة للمصدر، فحذفت إحداهما لالتقاء الساكنين، وعوضت عنها تاء في الآخر، فصار (إجازة) واختلف في أن المحذوف ألف (إفعال) أو عين الفعل، ذهب إلى الأول الخليل وسيبويه، فوزنها (إفعلة) قالوا: لأنها زائدة، والزائد بالحذف أولى، وذهب إلى الثاني أبو الحسن الأخفش، فوزنها عنده (إفالة). قال: لأن العين كثيراً ما يعرض له الحذف في غير هذا الموضع فحذفه أولى، والمذهب الأول أولى، لأن التقاء الساكنين إنما يحصل عند الثاني، فحذفه أولى.

وأما (معناها): ففي القاموس شرحه ما نصه: ومن المجاز (استجاز رجل رجلاً): طلب الإجازة، أي الإذن في مروياته ومسموعاته. و (أجازه) فهو (مجاز).

و(المجازات): المرويات. ولله درب أبي جفعر الفاروقي حيث يقول:

أجاز لهم عمر الشافعي ... جميع الذي سأل المستجيز
ولم يشترط غير ما في اسمه ... عليهم وذلك شرط وجيز

يعني العدل والمعرفة.

وعبارة (التقريب) مع شرحه (التدريب) قال أبو الحسن أحمد بن فارس اللغوي: (الإجازة)

في كلام العرب مأخوذة من (جواز الماء) الذي تسقاه الماشية والحرث. يقال منه: (استجزته فأجازني)، إذ سقاك ماء لماشيتك وأرضك. قال: كذلك طالب العلم يستجيز العالم، أي يسأله أن يجيزه علمه، فيجيزه إياه قال ابن الصلاح:

فعلى هذا يجوز أن يقال: (أجزت فلاناً مسموعاتي أو مروياتي) متعدياً بغير حرف جر من غير حاجة إلى ذكر لفظ الرواية. ومن جعل (الإجازة) إذناً وإباحة، وهو المعروف يقول: (أجزت له مسموعاتي) فعلى الحذف كما في نظائره.

وعبارة القسطلاني في (المنهج): (الإجازة) مشتقة من (التجوز) وهو التعدي، فكأنه عدى روايته حتى أوصلها للراوي عنه. وقول ابن فارس المتقدم من (جواز الماء) الإضافة للبيان. ففي (القاموس): (الجواز): كـ (سحاب): الماء الذي يسقاه المال من الحاشية والحرث.

وقال الإمام الشمني: (الإجازة) في الاصطلاح: إذن في الرواية، لفظاً أو خطاً، يفيد الإخباري عرفاً.

وأما (حقيقتها) فهي أحد أقسام تحمل الحديث الثمانية المقررة في المصطلح»(٩٧).

أقسام إجازات الحديث

أجمل العلماء ضروب إجازات الحديث في ثمانية أقسام، اقتصر التهانوي منها على الأقسام الخمسة المشهورة منها، ونرى من الفائدة أن نوردها كاملة هنا.

الإجازة الأولى : إجازة معيَّن لمعين

أعلى أنواع الإجازات وأرفعها إجازة معين لمعين، ولم يختلف في جوازها أحد، سواء أكان واحداً مثل: (أجزتك كتاب البخاري) أم أكثر، مثل (أجزتك فلاناً جميع ما اشتمل عليه فهرستي).

ووضح الزبيدي ذلك في وصف المجيز «كأن يقول: (أجزت لفلان الفلاني)، ويصفه بما يميزه (بالكتاب الفلاني)، أو (ما اشتملت عليه فهرستي) ونحو ذلك. فهو أرفع أنواع الإجازة المجردة عن المناولة»(٩٨).

قال القاسمي نقلاً عن صاحب (التقريب) وشرحه: «والصحيح الذي قاله الجمهور من الطوائف واستقر عليه العمل، جواز الرواية والعمل بها»(٩٩).

الإجازة الثانية :إجازة معين في غير معين

هي إجازة معين في غير معين، أو لغير معين، مثل (أجزتك جميع مسموعاتي أو مروياتي). والمعروف أن هذا الضرب من الإجازة أدنى من الإجازة الأولى.

ذكر القاسمي أن جمهور العلماء جوّزوا الرواية بها، فأوجبوا العمل بما روي بها، وأن الخلاف فيها أقوى وأكثر من القسم الأول(١٠٠).

كما علق التهانوي على هذين النوعين من الإجازة بقوله: «والصحيح جواز الرواية بهذين النوعين، ووجوب العمل بهما»(١٠١).

أما بقية الإجازات الست فقد اختلف فيها، كما يتوضح ذلك في قول الزبيدي: «وأما في غير هذا الوجه فقد اختلف فيه، فمنعه أهل الظاهر وشعبة، ومن الشافعية القاضي حسين والماوردي، ومن الحنفية أبو طاهر الدباس، ومن الحنابلة إبراهيم الحربي»(١٠٢).

الإجازة الثالثة:إجازة المجاز

يطلق على إجازة المجاز أيضاً إجازة الإجازة، وهي صحيحة، مثل: (أجزت لك جميع مجازاتي)(١٠٣)، أو (أجزتك مجازاتي)، أو (أجزتك جميع ما أجيز لي روايته)(١٠٤).

ذكر القاسمي أن ابن طاهر يدّعي الاتفاق عليه، وأشار إلى أن بعضهم قد منعه، وخلص

إلى القول بعد ذلك: «والصحيح الذي عليه العمل جوازه»(١٠٥).

أما الزبيدي فقد وقف عند هذا النوع من الإجازة، وأورد لنا ما اطَّلع عليه في هذا الصدد، ثم قال: «والذي استقر عليه العمل القول بتجويز الإجازة، وإجازة الرواية بها، والعمل بالمروي بها، كما حققه شيخنا المحقق أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سالم الحنبلي في كراريس إجازة أرسلها لنا من نابلس الشام، واطلعت على جزء من تخريج الحافظ أبي الفضل بن طاهر المقدسي في بيان العمل بـ (إجازة الإجازة) يقول فيه:

أما بعد، فإن الشيخ الفقيه الحافظ أبا علي البرداني البغدادي بعث إلي، على يد بعض أهل العلم، رقعة بخطه، يسأل عن الرواية بـ (إجازة الإجازة)، فأجبته: إذا شرط المستجيز ذلك صحت الرواية، وبيانه أن أقول عند السؤال: (إن رأى فلان أن يجيز لفلان جميع مسموعاته من مشايخه، وإجازاته عن مشايخه)، وأجابه إلى ذلك، جاز للمستجيز أن يروي عنه، ثم ساق بأسانيده أحاديث احتج بها على العمل بـ (إجازة الإجازة)»(١٠٦).

الإجازة الرابعة: إجازة العموم

وهي أن يجاز غير معين بوصف العموم ممن هو حي يرزق، مثل قول المجيز (أجزت المسلمين)، أو (أجزت للمسلمين)، أو (أجزت كل واحد)، أو (أجزت أهل زماني).

اختلف المتأخرون في هذا الضرب من الإجازة وقد جوزها الخطيب مطلقاً، وخصصها القاضي أبو الطيب بالموجودين عند الإجازة(١٠٧).

كما بحث القاسمي خلاف المتأخرين فيها، ثم استطرد قائلاً: «فإن قيد الإجازة بوصف حاصر، كأهل بلد معين، أو إقليم، فأقرب إلى الجواز من غير المقيدة بذلك. بل قال القاضي عياض: ما أظنهم اختلفوا في جواز ذلك، ولا رأيت منعه لأحد، لأنه محصور موصوف كقوله: (لأولاد فلان أو أخوة فلان).

وقد روى بالعامة(١٠٨) من المتقدمين الحافظ أبو بكر بن خير، ومن المتأخرين الشرف الدمياطي وغيره»(١٠٩).

الإجازة الخامسة :إجازة المعدوم

هذه الإجازة جائزة على الأصح، وأولى بالجواز من المطلقة، ذلك لأن المجيز في هذه الحالة يعطف المعدوم على الموجود، فتمت إجازته بشفاعته، مثل: (أجزت لفلان، ولمن يولد) أو (أجزت لك، ولولدك، ولعقبك ما تناسلوا).

ذكر القاسمي هذه الحالة المشترطة، وعلق عليها بقوله: «وفصل الثاني من المحدثين الإمام أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني، فقال، وقد سئل الإجازة: (قد أجزت لك، ولأولادك، ولحبل الحبلة)(١١٠) يعني الذين لم يولدوا بعد.

قال البلقيني: يحتمل أن يكون ذلك على سبيل المبالغة وتأكيد الإجازة»(١١١).

واستطرد بعد ذلك قائلاً: وصرح بتصحيح الإجازة للمعدوم القسطلاني في (المنهج)، وأبطلها القاضي أبو الطيب وابن الصباغ الشافعيان. قال النووي، وهو الصحيح الذي لا ينبغي غيره، لأن الإجازة في حكم الإخبار جملة بالمجاز، فكما لا يصح الأخبار للمعدوم لا يصح الإجازة له»(١١٢).

الإجازة السادسة :الإجازة المطلقة

هذه الإجازة باطلة بالإجماع عند العلماء، وهي غير إجازة المعدوم المحقق بالموجود، وغير إجازة العموم الخاصة بمن هو حي من الناس وإنما هي خاصة بمن سيكون منهم مطلقاً، أو بمن يحتمل وجودهم المتوقع، مثل: (أجزت لمن يولد)(١١٣).

قال القاسمي: «أما إجازة من يوجد مطلقاً فلا يجوز»(١١٤).

صحيح أن هذه الإجازة المطلقة باطلة، ولكنني أحب أن أقف قليلاً عندها لأوضح أن الهدف منها أعمق بكثير مما نظن، فليس أمر هذه الإجازة تسمية شكلية، وإنما يقصد بها الشمولية ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، والإنسانية المطلقة لأن الإسلام جاء للناس جميعاً فكان رحمة للعالمين.

الإجازة السابعة : إجازة الحمل

هذه الإجازة في نظر الفقهاء أولى بالصحة من إجازة المعدوم. قال الجاحظ، ولي الدين، أبو زرعة: «إن الجواز فيما بعد نفخ الروح أولى، وأنها قبل نفخ الروح مرتبطة متوسطة بينها وبين الإجازة للمعدوم، فهي أولى بالمنع من الأولى، وبالجواز من الثانية»(١١٥).

الإجازة الثامنة : إجازة الطفل

قال القاسمي: «وأما الإجازة للطفل الذي لا يميز فصحيحه على الصحيح الذي قطع به القاضي أبو الطيب والخطيب، ولا يعتبر فيه سن ولا غيره، خلافاً لبعضهم حيث قال: لا يصح كما لا يصح سماعه. قال الخطيب: وعلى الجواز كافة شيوخنا، واحتج له بأنها إباحة المجيز للمجاز له أن يروي عنه. والإباحة تصح للعاقل ولغيره.

قال ابن الصلاح: كأنهم رأوا الطفل أهلاً لتحمل هذا النوع ليؤدى به بعد حصول الأهلية لبقاء الإسناد. وأما المميز فلا خلاف في صحة الإجازة له»(١١٦).

إن تبيان هذه الضروب الثمانية من الإجازات في الرواية والسماع توضح المدى الذي بلغه البحث العلمي من الدقة والعمق.

والغريب أن الباحثين لم يتطرقوا إلى ذلك، ولم يفطنوا إلى النتائج المعروفة من خلال الآثار التي خلَّفتها الحضارة العربية في الحضارة الغربية.

* * *

يتضح لنا بعد هذا البحث العميق في ظاهرة الإجازة وحقيقتها، وأركانها، وضروبها، أن الحديث النبوي كان الدعامة الأساسية والمنطلق الواسع في قيام هذا النظام العلمي الدقيق الذي طبع الثقافة الإسلامية بطابعها المميز.

كما أن هذه الدقة المنهجية التي طبقت في بادئ الأمر على أحد علوم الدين شملت، بالتالي، سائر العلوم الدينية، وتجاوزتها بشكل سريع إلى العلوم الإنسانية والمادية، فأصبحت الإجازات العامة شاملة لكل مقومات الثقافة الإسلامية بعد أن تطورت الإجازات الأصلية الخاصة.

(2) الإجازات العلمية العامة

هكذا تطورت الإجازات العلمية الأصلية من الاقتصار والتخصص في رواية الأحاديث وسماعها إلى الإجازات العلمية العامة، فشملت مختلف العلوم، وعمت المعارف الإنسانية التي عرفها العرب والمسلمون.

ومما لا شك فيه أن هذه الإجازات العلمية الجديدة كانت تتويجاً لجهود الباحثين الذين أنهوا أبحاثهم ودراساتهم على وجه مرضي، بعد أن اختص كل منهم بعلم أو أكثر من العلوم التي كان يؤثرها، وغالباً ما يتعدد الاختصاص لتعدد الإجازات التي حصل عليها المستجيز.

بحث القلقشندي هذا الضرب من الإجازات العامة، وتحدث عن أنواعها، وفيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب مما جرت به العادة، وهي مراعاة النثر المسجوع في كتابتها.

استخدم العلماء في إنشائها أسلوباً خاصاً وفق الأساليب المتبعة في الكتابات الديوانية وغيرها. فالمفروض في مستهل كل إجازة أن تبدأ بالحمدلة والتشهد والصلاة بعد البسملة، كما هو معروف، ثم ينتقل العالم المجيز إلى ذكر ما يتعلق بالمجاز له، فيذكر الأمور المتعلقة بالسماح له بالفتيا أو التدريس أو الرواية أو غير ذلك، ولا بد من النص في الإجازة على الأمور العلمية التي اختبر بها، ويذكر فيها أنه قد أجاب عنها، ثم يختتم القول بالوصايا المناسبة التي يزود بها من الاستقامة والعدل وذكر الله الذي يجب ألا ينساه في السر والعلن.

صنف القلقشندي الإجازات العامة في ثلاثة أنواع: الإجازة بالفتيا والتدريس، والإجازة بعراضة الكتب، والإجازة بالمرويات على الاستدعاءات.

الإجازة بالفتيا والتدريس

بحث القلقشندي هذا الضرب من الإجازات الدينية والتعليمية، وهي أهم الإجازات، وقد قال في توضيحها: «أما الإجازة بالفتيا فقد جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس، أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرّس، ويكتب له بذلك، وجرت العادة أن يكون ما يكتب في الغالب في قطع عريض، أما في فرخة الشامي أو نحوها من البلدي، وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطراً متوالية، بين كل سطرين نحو إصبع عريض»(١١٧).

أبرز ما يلاحظ أنه يشترط في هذه الإجازة كتابتها في نوع معين من الورق، وفق نظام وقياسات محددة، وتكتب بقلم الرقاع، ويترك بين كل سطرين من أسطرها بعض الفراغ قدر

إصبع واحد.

ويختار لتسطيرها بعض العلماء من ذوي الخط الجميل، وتزداد قيمة الإجازة إذا كان العالم الذي كتبها من العلماء المشهورين، وهكذا يتضح أن العالم المجيز، يجب أن يترك لعالم آخر تسطير ما يملى عليه، وقد يفسر هذا الأسلوب بأن الغاية منه وجود آخر ليكون شاهداً على هذا الاختبار، وأنه كان بإشراف لجنة ثنائية، وهذا المنتهى في التقاليد الجامعية العريقة.

أورد القلقشندي نص إجازة حصل عليها وهو في الحادية والعشرين من عمره حين كان في الاسكندرية يتلقى العلم، وهي أول إجازة نالها، وقد كتبت بخط موقع الحكم العزيز بالاسكندرية القاضي تاج الدين بن غنوم.

أما شيخه المجيز الذي أملى على الكاتب نص الإجازة فهو العلامة الشيخ سراج الدين، أبو حفص بن أبي الحسن، الشهير بابن الملقن.

والنص الذي أملاه «بعد البسملة الشريفة»(١١٨).

«الحمد لله الذي رفع للعلماء مقداراً، وأجزل نعمه عليهم، إذ أعلى لهم مناراً، ووفق لسواء الطريق من اقتدى بهم إيراداً وإصداراً، أشرعت هممهم العلية في حلبة السباق، فهي لا تجارى، وتحلَّوا بالمفاخر جهراً، وقد عجز غيرهم أن يتحلى بها أسراراً وأبرز بهم فيه هالات المفاخر أقماراً، وأزال بضياء علومهم ريب الشك حتى عاد ليل الجهالة نهاراً، وجعلهم لدينه أنصاراً وصيرهم نخبة أصفيائه إذ أودعهم من المعارف أسراراً، واختصهم بكونهم ورثة أنبيائهم، وناهيك بها فخاراً».

وأتم الحمد الثاني بعد الأول، وخلص إلى التشهد والصلاة، ثم ذكر أهمية العلم والعلماء، وأورد نص ما في القرآن بعد قوله: (أما بعد).

وانتقل في القسم الثالث من الإجازة إلى ذكر المجيز والمستجيز، فقال: «ولما كان فلان... ممن شب ونشأ في طلب العلم والفضيلة، وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلة، وصحب السادة من المشايخ والفقهاء والقادة من الأكابر والفضلاء، واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالاً يرضي، وإلى نيل السعادة –إن شاء الله– يفضي، استخار الله تعالى سيدنا وشيخنا، وبكرتنا، العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ، الإمام، العلامة، الحبر، الفهامة، فريد دهره، ونسيج وحده، جمال العلماء، أوحد الفضلاء، عمدة الفقهاء والصلحاء، سراج الدين، مفتي الإسلام والمسلمين، أبو حفص عمر بن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ الصالح، الزاهد، العابد، الخاشع،

الناسك، القدوة، المرحوم شهاب الدين، بركة الصالحين، أبي العباس أحمد بن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ الصالح القدوة، العارف، المرحوم، شمس الدين، أبي عبد الله، محمد الأنصاري الشافعي، أدام الله تعالى النفع به، وببركته، وأشركنا والمسلمين في صالح أدعيته بمحمد وآله وصحبه وعزته»(١١٩).

هذا النص كله في التحدث عن الأستاذ المجيز، وبيان فضائله ونسبه واستطرد في القسم نفسه إلى طلب الإذن له في الإجازة، فقال: «وأذن وأجاز لفلان، المسمى فيه، أدام الله تعالى معاليه، أن يدرس مذهب الإمام المجتهد المطلق، العالم الرباني، أبي عبد الله بن إدريس المطلبي الشافعي، رضي الله تعالى عنه وأرضاه، وجعل الجنة متقلبة ومثواه، وأن يقرأ ما شاء من الكتب المصنفة فيه، وأن يفيد ذلك لطالبيه، حيث حل وأقام، كيفما شاء، ومتى شاء، وأين شاء، وأن يفتي من قصد استفتاءه خطاً ولفظاً، على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه، لعلمه بديانته وأمانته، ومعرفته ودرايته وأهليته لذلك وكفايته».

ويخلص بعد ذلك إلى القسم الرابع حيث الوصايا بقوله:

«فليتلق –أيده الله تعالى– هذه الحلة الشريفة، وليترق بفضل الله ذروة هذه المرتبة المنيفة، وليعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه وأسدى من الإحسان الوافر إليه، وليراقبه مراقبة من يعلم إطلاعه على خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وليعامله معاملة من يتحقق أنه يعلم ما يخفيه العبد وما يبديه في الورود والصدور، ولا يستنكف أن يقول فيما لا يعلم: (لا أعلم) فذاك قول سعد قائله، وقد جاء (جنة العالم لا أدري) فإن أخطأها أصيبت مقاتله»(١٢٠).

ويختتم نص الإجازة بقوله: «فالله يرزقنا وإياه التوفيق والتحقيق، ويسلك بنا وبه أقرب طريق، ويهدينا إلى سواء السبيل، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

يبرز هذا المختار المقتطف من نص الإجازة الدقة في كتابتها والتوثيق في ذكر المجيز والمجاز له، وهي –كما رأينا– مؤلفة من أربعة أقسام رئيسية يكتبها أحد العلماء الذين شهدوا منحها للمستجيز، ولا بد للشيخ المجيز من أن يعلق بخطه ما كتبه المكلف بكتابة نصها بخطه. يؤكد ذلك القلقشندي المستجيز: «وكتب شيخنا سراج الدين المشار إليه تحت ذلك بعد حمد الله تعالى ما صورته: (ما نسب إليّ في هذه الإجازة المباركة من الإذن لفلان... –أدام الله تعالى النفع به، وأجرى كل خير بسببه، بتدريس مذهب الإمام المطلبي، محمد بن إدريس الشافعي... والافتاء به لفظاً وخطاً– صحيح، فإنه ممن فاق أقران عصره بذكائه، وبرع عليهم بالاستحضار، وتحرير المنقول، ووفائه».

ثم عدد الأستاذ المجيز جملة من محفوظات المجاز له قائلاً: «... فاستحضر بحضرتي مواضيع منه جمة، وأزال ببديع فصاحته جملة مدلهمة، وأظهر من مشكلاته ما يعجز عنه اللبيب، ومن أغاريب ما يقف عنده البارع الأريب»!

وخلص بعد ذلك إلى الوصايا وتحري الصواب والحذر هو الزلل، لأنه «موقِّع عن الله تعالى»، ثم قال:

«وأجزت له مع ذلك أن يروي عني ما لي من التآليف... وأجزت له مع ذلك ما جاز لي وعني روايته بشرطه عند أهله، زاده الله وإياي من فضله، ومنها الكتب الستة: (البخاري)، و (مسلم)، و (أبو داود)، و (الترمذي)، و (النسائي)، و (ابن ماجه)، والمسانيد: (مسند أحمد)، و (مسند الشافعي)، وغير ذلك، وكان ذلك في تاريخ كذا»(١٢٢).

والأهم من هذه النعوت المذكورة المتعلقة بالمجيز والمجاز له، هو توثيق الإجازة بخط الأستاذ المجيز نفسه، فلم يكتف بنص الإجازة المستفيض، وإنما أضيف له هذا التوثيق الشخصي من الأستاذ نفسه.

كما ذكر القلقشندي أنه حذف من نص إجازته السابقة ما يكتب عادة للمجاز له «من حيث أنه لا يليق بأحد أن يذكر ألقاب نفسه في مصنف له، لأنه يصير كأنه أثنى على نفسه»(١٢٣).

أما هذه الألقاب المحذوفة المشار إليها فتكون على قدر رتبة المجاز مثل أن يكتب له: «الفقير إلى الله تعالى، الشيخ، الإمام، العالم، العامل، الأوحد، الفاضل، المفيد، البارع، علم المفيدين، رحلة القاصدين، فلان الدين، أبو فلان، فلان ابن فلان، (بحسب رتبة آبائه).

ولا شك أن هذه النعوت توضح لنا ما كان لنا وما كان عليه الطالب المفيد من الاحترام في مراحل تحصيله المختلفة، فقد تضمنت ذكر اسمه وكنيته ولقبه، وشفعت بالنعوت العلمية والخلقية والشخصية وغير ذلك.

وأرخت هذه الإجازة كما هي العادة بقوله:

«وكتب في تاريخ كذا»(١٢١).

الإجازة بالرواية

النوع الثاني من أنواع الإجازات العامة، الإجازة بالرواية أو الإجازة بالمرويات على الاستدعاءات.

والطريقة التي فيها أن يكتب بعض طلبة العلم المستجيزين إلى بعض الفقهاء والعلماء المختصين، والإعلام المشهورين في بعض فروع العلوم استدعاءات خاصة يطلبون فيها إجازتهم على ما يطلبونه من حق الرواية، أو السماح بالسماع عنهم وغير ذلك.

وقد جرت العادة في مثل هذه الأحوال أن تكتب الإجازة وترسل إلى طالبيها. وهذا النوع من الإجازات العامة يبرز المدى الذي بلغته الثقافة الإسلامية والحضارة العربية في هذا المضمار.

وخير ما نعرضه منها هنا نص الاستدعاء الذي طلب فيه الصفدي ومن شيخه جمال الدين بن نباتة المصري أن يمنحه إجازة خاصة وإجازة عامة، والسماح له بروايته لكتبه المختلفة، وطلب أن يزوده ببعض ما يسأله عنه.

استهل المستجيز الصفدي طلب الإجازة بقوله: «الحمد لله على نعمائه، المسؤول عن إحسان سيدنا، الإمام، العالم، العلامة، رحلة أهل الأدب، قبلة ذوي التحصيل والدأب.. جمال الدين، أبي عبد الله، محمد ابن الشيخ الحافظ شمس الدين محمد بن نباتة، جمع الله شتات أهل الأدب في درجة هذه الدولة... إجازة كاتب هذه الأحرف، فسح الله في مدته، برواية المصنفات في الأحاديث النبوية، والتآليف الأدبية، على اختلاف أوضاعهما، وتباين أجناسهما وأنواعهما، بحسب ما يؤدي ذلك إليه، واتصل به من سماع، أو إجازة، أو وصية، أو إجازة، من مشايخ العلم الذين أخذ عنهم، وإجازة ما له، أحسن الله إليه، من مقول: نظماً، أو نثراً، أو تأليفاً، أو وضعاً، (إجازة خاصة) وإثبات ما له من التصانيف إلى هذا التاريخ بخطه الكريم، وإجازة ما لعله يقع بعد ذلك (إجازة عامة)...»(١٢٤).

واختتم الصفدي المستجيز طلبه بقوله: «كتبه خليل بن أيبك بن عبد الله الأيبكيّ بالقاهرة المحروسة، في مستهل شعبان المبارك سنة تسع وعشرين وسبعمائة وحسبنا الله ونعم الوكيل»(١٢٥).

يلاحظ في نص استدعاء الإجازة أن المستجيز بعث من القاهرة إلى دمشق بهذا الطلب، وقد لاحظنا أنه كان يلتزم آداب المخاطبة ويثني عليه كل الثناء، ويخصه بأفضل النعوت العلمية والآداب الخلقية.

كما يلاحظ أن الإجازة الخاصة كانت تقتصر على الماضي والحاضر، وأن الإجازة العامة تشمل كل ما يجد ويتعلق بالمستقبل، وقد لاحظنا أن بعض المستجيزين يطلبون في الإجازة أن تشمل أولادهم بشكل عام، سواء منهم الأحياء، أو الذين يتوقع أن يولدوا في المستقبل.

ذكر ابن حجة الحموي في خزانته أن الأستاذ المجيز جمال الدين بن نباتة أبطأ في رده الجواب، وقد استهل إجازته للصفدي بقوله بعد البسملة: «أما بعد: حمداً لله الذي إذا توجه إليه ذو السؤال فاز، وإذا استدعى كرمه ذو الطلب أجاب وأجاز، والصلاة والسلام على سيدنا محمد كعبة القصد التي ليس بينها وبين النجح حجاز...»

واستطرد الأستاذ المجيز، وأفاض القول في ذكر فضائل المستجيز، وهذه من آداب الإجازة المتبعة، فتحدث عن آدابه حديثاً شيقاً، يتسم بالمبالغة في ذكر النعوت والأوصاف، وخلص بعد هذا الاستطراد الطويل إلى قوله: «وأجزت لك أن تروي عني ما تجوز لي روايته من مسموع ومأثور، ومنظوم ومنثور، وإجازة ومناولة، ونقل وتصنيف، وتنضيد وتفويف، وماض ومتردد، (وآت على رأي بعض الرواة) ومتجدد، وجميع ما تضمنه استدعاؤك، فاجمع ما يكون من لفظه المتبدد، كاتباً لك بذلك خطي، مشترطاً عليك الشرط المعتبر، فليكن قبولك يا عربيّ البيان جواب شرطي...»(١٢٦).

وانتقل بعد ذلك إلى جوانب أخرى من هذه الإجازة، فذكر، بناء على طلب المستجيز روايته عن بعض مشايخ الحديث سماعاً وحضوراً، ولا سيما أن المجيز هو ابن الشيخ الحافظ المحدث المشهور شمس الدين بن نباتة وأنه تفرد برواية بعض الأحاديث، وهذا الذي كان يتوخاه في طلبه خاصة، وقد أجابه إلى مطلبه، فذكر نبذة عن حياته وآثاره وأساتذته وغير ذلك، ثم قال بعد عرضه المسهب: «أجزت لك (أعزك الله) روايتها عني، ورواية ما أدونه وأجمعه بعد ذلك حسبما اقترحه استدعاؤك ونمقه، ونسخه وحققه، وتضمنه سؤالك الذي تصدقت به، فمنك السؤال ومنك الصدقة..»(١٢٧).

كان نص الإجازة أطول من نص استدعاء المجيز، وقد لاحظنا أن الشيخ المجيز اختتمها بهذا القول الرقيق الذي يعبر عن هذا التواضع الذي كان بين العلماء، كما لاحظنا هذا الالتزام المتبادل بآداب التحدث والخطاب.

يضاف إلى ذلك كله أن الإجازات تمثل آفاق الثقافة التي يشترط في كل مثقف أن يتحلى بها، وهي صفحة مشرقة غرّاء في حضارتنا.

مثل آخر من الصفدي نفسه، وهو هنا فيه المجيز، لا المستجيز، كما رأينا في الإجازة السابقة، فقد كتب على استدعاء بعث به القاضي شهاب الدين أحمد الحنبلي، خطيب بيت الآلهة، وكاتب الدست بالشام، يستجيزه لنفسه.

وما جاء في الإجازة الجوابية التي بعث بها الصفدي إليه قوله بعد الحمدلة والتشهد والصلاة: «وبعد، فإن الرواية من محاسن الإسلام، وخصائص الفضلاء الذين تخفق لهم ذوائب الطروس، وتنتصب رماح الأقلام، ولم تزل رغبة السلف تتوفر عليه، وتشير أنامل إرشادهم للأنام بالحث إليه»(١٢٨).

واستطرد المجيز في التحدث عن أوصاف صاحب الاستدعاء المستجيز، وهو خطيب وقاض، فقال:

«فأراد أن يشرّف قدري، ويعرف نكري فطلب الإجازة مني، وأنا أحق بالأخذ عنه، واستدعى ذلك مني، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه مني.

فنعم قد استخرت من الله تعالى، وأجزت له ما يجوز لي تسميته، وذكرت هنا شيئاً من مرويَّاتي وأشياخي، رحمهم الله، وذكرت مصنفاتي(١٢٩):

إجازة قاصر عن كل شيء ... يسير من الرواية في مفازه
لمن ملك الفضائل واقتناها ... وجاز مدى العلا سبقا وجازه»

الإجازة بالعراضة

هذا الضرب من الإجازة على غاية من الأهمية العلمية، فلقد ذكر القلقشندي أنه «جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتاباً في الفقه، أو أصول الفقه، أو النحو، أو غير ذلك من الفنون، يعرضه على مشايخ العصر، فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب، ويفتح منه أبواباً ومواضيع، يستقرئه إياها من أي مكان اتفق، فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم، استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه جميع الكتاب، وكتب له بذلك كل من عرض عليه، في ورق مربع صغير، يأتي كل منهم بقدر ما عنده من الملكة في الإنشاء، وما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال ونحوها، فمن عال، ومن هابط، وربما خفف بعضهم، فكتب: (وكذلك عرض عليّ فلان) أو (عرض عليَّ وكتبه فلان)، أما رياسة وتأبياً عن شغل فكره وكد نفسه فيما يكتبه وأما عجزاً عن مضاهاة من يكتب معه، وقد اخترت أن أضع في هذا المحل ما وافق

الصيغة وجرى على أسلوب البلاغة»(١٣٠).

اختار القلقشندي في هذا الضرب من الإجازات نص الإجازة التي كتبها الشيخ بدر الدين محمد بن أبي بكر المخزومي المالكي للنجل النبيل شهاب الدين أبي العباس، أحمد بن محمد العمري حين عرض عليه كتابين: أولهما (عمدة الأحكام) للحافظ عبد الغني، وثانيهما كتاب (شذور الذهب) للشيخ جمال الدين بن هشام في رمضان سنة سبع عشرة وثمانمئة. ومما جاء فيه بعد الحمدلة والتشهد والصلاة قوله:

«فقد عرض علي الجناب العالي... طائفة متفرقة من (عمدة الأحكام) للحافظ عبد الغني المقدسي، و (شذور الذهب) للعلامة جمال الدين بن هشام عرضاً قصرت دونه القرائح على طول جهدها.. فأحسن عند العرض في سردها، وزين (أبقاه الله) تلك الأماكن بطيب لحنه وإعراب لفظه، وآذن امتحانه فيها بأن جواهر الكتابين قد حصلت بمجموعها في خزانة حفظه. فحبذا هو من حافظ روى حديث فضله عالياً، وتلا على الأسماع ما اقتضى تقديمه على الاقتران فلله دره مقدماً وتالياً.

واختتم الأستاذ المجيز إجازته بقوله: «والله تعالى يبهج نفسه بما يصبح الحاسد وهو مكمد، وتقر عينه بهذا الولد النجيب حتى لا يبرح يقول: «أشكر الله وأحمد بمحمد وآله»(١٣١).

واختار القلقشندي نص إجازة ثانية كتبها الشيخ المجيز محمد بن عبد الدائم لولد القلقشندي أبي الفتح نجم الدين محمد حين عرض على أستاذه كتاب (المنهاج) في الفقه للنووي في سنة ثلاث عشرة وثمانمئة للهجرة، ومما جاء فيها قوله بعد المقدمة الحمدلية التقليدية: «وبعد، فقد عرض عليَّ الفقيه الفاضل... مواضع متعددة من (المنهاج) في فقه الإمام الشافعي المطلبي... تأليف الحبر العلامة، ولي الله، أبي زكريا بن شرف الدين بن مري النووي... دل حفظه لها على حفظ الكتاب، كما فتح الله له مناهج دقة وجلَّة، وكان العرض في يوم كذا»(١٣٢).

وقد تتضمن الإجازة الواحدة أكثر من تفويض واحد فتجمع مثلاً بين الرواية والعراضة معاً، فمن ذلك ما كتبه عز الدين بن جماعة: «كذلك عرض علي المذكور باطنها عرضاً حسناً، محرراً، مهذباً، مجاداً، متقناً، عرض أيقن حفظه، وزين بحسن الأداء لفظه، وأجزل له من عين العناية حظه، مر فيه مرور الهملاج الوساع(١٣٣) في فسيح ذي السباع، وقد دلني ذلك منه (نفعه الله تعالى، ونفع به، ووصل أسباب الخير بسببه) على علو همته، واتقاد فطنته، وأصله في ذلك عريق:

سجيَّة تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم – شرها البدع

وقد أذنت له أن يروي عني الكتاب المذكور وجميع ما يجوز لي، وعني، روايته من مصنفاتي وغيرها، من منظوم ومنثور، ومنقول ومعقول ومأثور بشرطه المعتبر، عند أهل الأثر، وكتب فلان في تاريخ كذا...»(١٣٤).

أبرز ما لاحظناه في مضمون هذه الإجازة الدقة المتناهية، والشروط المعتبرة في المأثور، ومما لا شك فيه أن قيمة الإجازة تختلف بحسب قيمة الأستاذ المجيز، وحتى الذي يقوم بكتابتها من العلماء الذين حضروا اختبار المجاز له.

ولا تكتب الإجازة في العراضة إلا بعد التأكد من حسن استعداد الطالب الممتحن في العلوم والكتب التي عرضت عليه، وسئل فيها عن بعض القضايا المختارة والأمور والمسائل المعقدة، من خلال قطع الكتاب المعروض على غير اتفاق.

ثمَّة بعض الأنواع الأخرى من الإجازات، نص فيها على الإطلاق والشمولية في مضمونها، تشمل على الإخوة والأبناء وغيرهم ممن يحددهم المستجيز في طلبه، وقد نستغرب في بعض الإجازات أنها تتضمن شمولها لمن سيلد في المستقبل من أبناء المستجيز.

يحسن في نهاية هذا البحث الوقوف عند إجازة كتبها القلقشندي لطفل نابغة، لم يتجاوز العاشرة من عمره، وقد قدم المجيزة لهذه الإجازة قبل إيرادها بقوله:

«ومن ذلك ما كتبته لمن اسمه (محمد)، ولقبه (شمس الدين) من أبناء بعض الإخوان، وقد عرض عليّ الأربعين حديثاً) للشيخ محي الدين النووي رحمه الله، و (الورقات) في الأصول لإمام الحرمين و (اللحمة البدرية) في النحو للشيخ أثير الدين بن حيان دفعة واحدة، وهو لدون عشر سنين وهو:

(الحمد لله الذي أطلع من دراري الأفاضل في أفق النجابة شمساً، وأظهر من أفاضل الذراري ما يغض به المخالف طرفاً، ويرفع به المخالف رأساً، وألحق بالأصل الكريم فرعه في النجابة فطاب جنى وأعرق أصلاً وزكا غرساً، وأبرز من ذوي الفطر السليمة من فاق بذكائه الأقران فأدرك العربية في لمحه، وسما بفهمه الثاقب على الأمثال فأمسى وفهم (الورقات) لديه كالصفحة، وخرق بكرم بدايته العادة، فجاز الأربعين لدون العشر، وأتى على ذلك بما يشهد له بالصحة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي عمَّت بركة اسمه الشريف سميه ففاز منها بأوفر نصيب، وخص بإلهام التسمية به أولو الفضل والنهى فما سمي به إلا كريم ولا سمي به إلا نجيب، وعلى آله وصحبه الذين أينعت بهم روضة العلم وأزهرت، وأورقت شجرة المعارف

وأثمرت.

وبعد، فقد عرض عليَّ فلان مواضع من كتاب كذا، وكتاب كذا، فمر فيها مرور الصبا، وجرى في ميدانها جري الجواد، فما حاد عن سنن الطريق ولا كبا».

يبدو أن نص هذه الإجازة لم يكتمل، وقد لاحظ محقق (صبح الأعشى) ذلك، فذكر أن بقية هذه النسخة سقطت من قلم الناسخ كما ترى(١٣٥).

والملاحظة الهامة في نص هذه الإجازة أن المجيز تعجب كل التعجب من هذا الطفل المجاز الذي لم يتجاوز العاشرة، أي أن عمره التربوي أعلى بكثير من عمره الزمني، ولذلك أجاب إجابة من كان في الأربعين، وبرهن في أجوبته بما يشهد له بصحة التفكير والذكاء الثاقب.

والملاحظة الثانية الأهم أن النظام التربوي السائد كان –في الواقع– صورة عن الحياة الثقافية الشاملة، فنحن نجد أن الأطفال كانوا يدرسون بالإضافة إلى كتاب الله –بعض المصادر العلمية الجليلة. فهذا الطفل المجاز أتقن في الحديث كتاب (الأربعين حديثاً) النووية، وفي الأصول كتاب (الورقات) لإمام الحرمين، وفي النحو كتاب (اللمحة البدرية) لأبي حيان.

الإجازات الشعرية:

ليس المقصود هنا ما سبق لنا إيراده من الإجازة في الشعر، أو الإجازة عند الشاعر، فقد وضحنا المعنى الاصطلاحي في مكانه من هذا البحث، وإنما المقصود استخدام النظم كأسلوب نستعيض به عن النثر في الاستجازة.

لاحظنا فيما مر معنا استخدام النثر في إجازات الحديث الخاصة، وفي الإجازات العلمية العامة، على اختلاف ضروبها، وقد استخدم في تحريرها الأسلوب المسجع، كما فعل القلقشندي في صبحه، واختار لنا نماذج مختلفة من الإجازات «ما وافق الصنعة وجرى على أسلوب البلاغة».

أما المستجيزون والمجيزون من الشعراء أو العلماء البارعين في النظم فكانوا يفضلون استخدام النظم لا أكثر في كتابة هذه الإجازة العلمية، ولابد في قصيدتي الاستجازة والإجازة من أن تكونا وفق ذات الوزن والروي كما في القصيدة التي أجاب بها جمال الدين بن نباتة أحد طلابه المستجيزين شعراً فقال(١٣٦):

سئلت إجازتنا لهم ولمثلهم ... يروي الإجازة سيد عن سيد
ونعم أجزت لهم رواية ما اقتضوا ... بالشرط من لفظ أجزت ومسند
ومصنفات لست عنها راضياً ... فمسوَّد منها وغير مسود
أهملت منها ما أردت وبعضها ... ناديت: لا تهلك أسى وتجلد
خذها إجازة طائع لك منشد ... للمدح فاعجب للمجيز المنشد
واسبقه بالقدر البسيط فإن لي ... هما مديداً إن أقل قال: اقصد
قلمي ولفظي معرضان كلاهما ... لا من لساني إن نطقت ولا يدي

وأجاب المجيز الشاعر نفسه جمال الدين ابن نباتة في معرض إجازة شعرية ثانية المستجيز شمس الدين بن سمنديار بإجازة شعرية مطولة، نختار منها قوله(١٣٧):

إن قيل: إن (سمنديار) لشخصه ... نسب فللعرب الخلاص لسانه
مستبدع الألفاظ قد حصلت على ... رجحانها وعلوّها أوزانه
قل: يا محمد فيه يسمع فنه ... قولاً يطول إلى السها كيوانه
ها قد أجزتك طوع أمرك إن تجز ... إن الرفيع تجيزه أدوانه
إن كنت سلطان القريض فإنه ... لولاك لم ينفذ إذا سلطانه
أعلام طرسك حيث سار وقصره ... من بيتك المعمور أو بستانه
أمَّرت في الأشعار شعرك حاكماً ... متصرفاً في أمرها ديوانه

نكتفي بهاتين الإجازتين اللتين بعث بهما الشاعر جمال الدين بن نباتة لمن كان قد استجازه شعراً في استدعائه، ولكن لا بد من الإشارة هنا إلى أن القصيدة الاجازية الثانية تضمنت شيئاً جديداً، وهو تطور جديد في الإجازة العامة ذلك أن المجيز إنما يتحدث عن أمارة الشعر والتصرف في الديوان، وهكذا نشهد مرحلة ختامية جديدة في الإجازة الشعرية، وقد رأيناها أسلوباً وإذا بها تغدو مضموناً إجازياً في الشعر وحده.

نتجاوز هذا التطور الاجازي الشعري لنعود ثانية إلى ما لنا فيه، ولا بد لنا لكي نستكمل الصورة المذكورة من أن نعرض صورة أخرى مقابلة تتمثل في الاستدعاء من المجيز في طلب الإجازة.

كتب الشاعر عبد الرحمن بن النقيب إلى الشيخ العلامة خير الدين الرملي يستجيزه، وقد استهل قصيدته الاستجازية بقوله: (١٣٨)

كم حللت الحبا بشرخ الشباب لرياض طوع المنى ورواب
ومناخ في ظل جانب دوح ومقيل بين الغصون الرطاب

وانتقل إلى التحدث أستاذه المجيز مادحاً:

مسند الشام مع فلسطين خير الد ين من جاء بالعجيب العجاب
هو نعمان عصره فارس الحل بة في المشكلات عند الجواب
خصَّه الله في الفروع بفهم زاكن خابر مناط الصواب
وحباه منا لعلوم بحظ وافر فارتقى على الأضراب
ما تصدى لمشكل قط إلا وجلا عنه وصمة الارتياب

ويمهد الشاعر بهذا الثناء ليخاطب المجيز قائلاً(١٣٩):

يا إماماً أبصرت منه بعين السمـ ـع كهفاً لسائر الطلاب
منك في الشام رحلة عاقني عذ ه من الخط مخلف الأسباب
فإليك الغداة مني ردوداً بنت فكر فوق الرداح الكعاب
وتحلت من بعد أوصافك الغـ ـر بعقد منضد الإقتضاب

ويصرح بعد توطئته المسهبة طالباً بر الإجازة في سند الفقه، ويختتم طلبه داعياً بطول البقاء لأستاذه المجيز، قائلاً له على لسان قصيدته:

ترتجي (الإجازة) منك في المر ويّ مهراً فتلك أقصى الطلاب
فأنلني لا سيما سند الفقـ ـه بعلياك يا رفيع الجناب
وتفضل بها على مستميح راغب واغتنم جزيل الثواب
فلمن مثلك (الإجازة) تستا م بنظم القريض للأحباب

وابـــق واســلــم مــرفَّــه الــبــال مــا خط　　　　　يــــراع حـــرفـــاً بـــصـــدر كـــتـــاب

ليست هذه القصيدة الاستجازية الوحيدة في ديوان الشاعر نفسه، يطلب الإجازة في استدعائه الشعري، فقد عرف عنه أنه كتب للشيخ محمد بن سليمان نزيل مكة يستجيزه، ولكن طلبه لم يقتصر عليه وحده وإنما تجاوزه إلى ابنه الوحيد سعيد، وأخويه عبد الكريم وإبراهيم(١٤٠).

ومما لا شك فيه أن الإجازات الشعرية بنوعيها، ظهرت بعد الإجازات النثرية، فالمضمون فيها يختلف، فهناك إجازة الشعر نفسه، وهناك الإجازة في العلوم المختلفة يستخدم في طلبها النثر في معظم الأحيان، والشعر في أحيان نادرة جداً.

(4) آداب الاستجازة والإجازة

يتضح مما تقدم معنا أن الإجازات العلمية ظاهرة فريدة في التراث العربي، تمثل قمة النضج في الثقافة الإسلامية، ونستطيع من خلالها التعرف على مناحي الحياة الدينية والفكرية والعلمية، وقد لاحظنا الشروط المعتبرة في منحها، كما أشرنا إلى تشدد العلماء في الفحص والاختبار، وأوردنا النص الكامل في التأكد من أهلية المجاز وكفاءته خلال سؤال بعض العلماء عن خمسة أمور هي التحدث عن لفظ الإجازة، وتصريفها، وحقيقتها، ومعناها، وأقسامها الثمانية.

ولا بد من الإشارة هنا أيضاً إلى أهمية أدب الاستجازة، وأدب الإجازة، فقد لاحظنا من خلال الإطلاع عليها التمسك بالمفاهيم الخلقية السامية والتقاليد الاجتماعية التي يتمسك بها الناس بعامة والعلماء بخاصة.

نبدأ بأدب الاستجازة، فنجد التقديس والإجلال والاحترام للعلم وللعلماء، لا رغبة في نيل الإجازة، ولا رهبة من غضب الأستاذ وإنما نجد أن جماعة الفقهاء من الطلاب المستجيزين يقدرون العلماء، ويقدسون العلم دون انتظار ثواب أو ابتغاء مصلحة.

ويشتمل عادة طلب الإجازة على ذكر نسب الأستاذ المجيز، وتعداد نعْوته الاجتماعية والدينية والعلمية، وبيان ما له من المصنفات على اختلافها، كما يشمل على بعض المطالب الخاصة، بالإضافة إلى المطالب العامة، أو كما اصطلح عليه الإجازة العامة، أو الإجازة الخاصة، وذلك بحسب وضع الطالب المستجيز.

أما أدب الإجازة فيتميز بالتواضع الذي يتصف به العلماء، ولا شك في أن ذلك يراجع إلى صفات المعلمين. ومن تكبر من العلماء وحجب معارفه عن مريديه فإنما يكون قد أذنب في حق الشرع.

وتبدأ الإجازة عادة بالبسملة، والحمدلة، والتشهد، والصلاة، ولا بد أن يتضمن الحمد بعض ما سوف يرد في نص الإجازة.

وفي القسم الثاني لا بد لنا من ذكر السماع والرواية والعراضة، وفي القسم الثالث ينص على لفظ الإجازة وما يستتبعها من حقوق، وينص في القسم الرابع على الواجبات المترتبة عليه بعد نيله حق الإجازة كما يشترط في أسلوبها أن تكتب بإتقان، يلتزم فيها الكاتب بالسجع والصور البديعية وغيرها، ويختار عادة لكتابتها بعض العلماء الذين حضروا الاختبار العلمي.

وليس من المبالغة في شيء إن قلنا: إن هذه المناهج العلمية والتقاليد العريقة في تراثنا العربي والمطبقة في الأكاديميات العلمية والمؤسسات الجامعية في العصر الحديث ليست في الأصل إلا جزءاً من هذا التراث الحضاري الإسلامي والفكر العربي الأصيل، وهما اللذان أسهما في تطور الحضارة الإنسانية الحديثة، وأوصلاها إلى قمة الإبداع الحضاري.

فما أحوجنا نحن الآن إلى تبيان الذخائر التراثية ودراسة هذه الجوانب الفكرية الأصيلة في تراثنا وحضارتنا كما كانت في أوج نهضتنا، وذلك حين أثرت الحضارة الإنسانية وأثرت فيها، وفتحت أمامها منهج التطور والتجديد.

ومن حقنا أن نجدد هذا التراث العربي ونبرز هذه المفاهيم والقيم، لا رجوعاً منا إلى الوراء لنعيش على أطلال الماضي وظلاله وإنما نفعل ذلك لكي نحفظ لحضارتنا استمرارها دون انقطاع، نصل الماضي بالحاضر وننطلق من خلالهما في آفاق المستقبل الرحب، على هدي هذا الماضي الثرّ، ووفق المعطيات العلمية المعاصرة.

والخطر كل الخطر حين نتمسك بالتراث تمسكاً أعمى نجمد عليه، ونعرض عن الآماد الفسيحة والمنجزات العظيمة التي بلغها العلم في العصر الحديث.

المصادر والمراجع المعتمدة في هذا البحث

١-التهانوي: (محمد بن علي التهانوي المتوفى في القرن الثاني عشر الهجري)

*كشاف اصطلاحات الفنون. تحقيق لطفي عبد البديع. نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة ١٣٨٢هـ-١٩٦٣م.

٢-ابن جبير: (أبو الحسين، محمد بن أحمد بن جبير المتوفى سنة ٦١٤هـ).

*رحلة ابن جبير

منشورات دار صادر بيروت ١٣٧٩هـ- ١٩٥٩م.

٣-ابن حجة: (تقي الدين أبو بكر، المعروف بابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧هـ)

*خزانة الأدب. طبع دار الطباعة ١٢٩١هـ- القاهرة.

٤-الخطيب البغدادي (أبو بكر، أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ)

*تاريخ بغداد. طبع دار الكاتب العربي.

٥-ابن دقماق (إبراهيم بن ايدمر بن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩هـ)

*الانتصار لواسطة عقد الأمصار.

مطبعة بولاق سنة ١٨٩٣م

٦-الزبيدي: (مرتضى محمد بن محمد المتوفى سنة ١٢٠٥هـ)

*تاج العروس في شرح القاموس.

الطبعة الأولى. المطبعة الخيرية، سنة ١٣٠٦هـ.

٧-السبكي: (تاج الدين، أبو نصر، عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١هـ).

*معيد النعم ومبيد النقم. تحقيق الأساتذة محمد علي النجار، وأبي زيد شلبي، ومحمد أبو العيون.

طبع دار الكاتب العربي بمصر، سنة ١٣٦٧هـ- ١٩٤٨م

٨-السيوطي: (جلال الدين، عبد الرحمن ابن أبي بكر، المتوفى سنة ٩١١هـ)

*حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة المطبعة الشرقية بالقاهرة سنة ١٣٢٧هـ

٩-الصفدي (صلاح الدين، خليل بن ايبك، المتوفى سنة ٧٦٤هـ)

*الوافي بالوفيات. تحقيق هـ. ريتر. طبع مطبعة الدولة باستانبول سنة ١٩٣١م

١٠-القاسمي (جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق المتوفى سنة ١٣٣٢هـ).

*الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين.

وهو شرح الأربعين العجلونية، مخطوطة أطلعني عليها الأستاذ عاصم ابن أستاذي الكبير العلامة المرحوم الشيخ محمد بهجة البيطار، فجزاه الله عني خيراً.

١١-القلقشندي (أبو العباس أحمد القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١هـ).

*صبح الأعشى في صناعة الانشا

طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٣٢ هـ -١٩١٥م.

١٢-كرد علي: (محمد بن عبد الرزاق بن محمد، المتوفى سنة ١٩٧٤هـ- ١٩٥٣م)

*خطط الشام. طبع المطبعة الحديثة بدمشق سنة ١٣٤٣هـ- ١٩٢٥م.

١٣-المحبي (محمد أمين بن فضل الله، المعروف بالمحبي، المتوفى سنة ١١١١هـ)

*خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر المطبعة الوهبية بالقاهرة ١٣٨٤هـ

١٤-ابن منظور (أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المتوفى سنة ٧١١هـ).

*لسان العرب

طبع دار صادر ودار بيروت ١٣٧٤هـ- ١٩٥٥م

١٥-موسى باشا (د. عمر بن محمد علي موسى باشا).

*الأدب في بلاد الشام. طبع المكتبة العباسية بدمشق سنة ١٩٧٢م.

*ابن نباتة المصري- أمير شعراء المشرق طبع دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٣م-١٣٨٣هـ.

*محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني منشورات جامعة دمشق. مطبعة الإحسان ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

١٦-النعيمي (عبد القادر بن محمد النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧هـ)

*الدارس في تاريخ المدارس. تحقيق الأستاذ جعفر الحسيني.

منشورات المجمع العلمي العربي. طبع مطبعة الترقي بدمشق ١٣٦٧هـ- ١٩٤٨م

١٦-ابن النقيب: (عبد الرحمن بن محمد، الملقب بابن النقيب المتوفى سنة ١٠٨١هـ)

*ديوان ابن النقيب، تحقيق الأستاذ عبد الله الجبوري.

مطبوعات المجمع العلمي العربي ١٣٦٨هـ - ١٩٦٣م

١٧-ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ابن واصل الحموي المتوفى سنة ٦٩٧هـ)

*مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال.

المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٥٩هـ – ١٩٥٧م

الحواشي

(٨٧)ابن منظور: لسان العرب، ج ٥ ص ٣٢٩.

(٨٨)القاسمي: الفصل المبين (مخطوط) ورقة ١٨.

(٨٩)المصدر السابق، ورقة ١٨، ١٩.

(٩٠)الزبيدي: تاج العروس، ج٤ ص ٣١، ٣٢.

(٩١) المقصود من (نا) في نص الحديث، أي (حدثنا)، و (أنا) أي (أخبرنا)، وهذان المختصران من أساليب الحديث النبوي، ويكتب في بعض الأحيان (ثنا)، وقد أفادنا محققو كتاب (معيد النعم ومبيد النقم) للسبكي أن استخدام هاتين الصيغتين: (أخبرنا) و (أنبأنا) سواء عند المتقدمين. أما عند المتأخرين فإن الإنباء يكون مقصوراً على الإجازة فقط.

(٩٢)الصفدي: الوافي بالوفيات، ص ١١٧.

(٩٣)التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون ج١ ص ٢٠٨.

(٩٤)القاسمي: الفضل المبين (مخطوط) ورقة ١٠٢/ ١٧، والزبيدي، تاج العروس، ج٤ ص ٣١، ٣٢.

(٩٥)الزبيدي: تاج العروس، ج٤ ص ٣١، ٣٢.

(٩٦)القاسمي: الفضل المبين (مخطوط) ورقة ١٧.

(٩٧)المصدر السابق، ص ١٧، ١٨.

(٩٨)الزبيدي: تاج العروس، ج٤ ص ٣١، ٣٢.

(٩٩)القاسمي: الفضل المبين (مخطوط) ورقة ١٨.

(١٠٠)المصدر السابق، ورقة ١٨.

(١٠١)المصدر السابق، ورقة ١٨.

(١٠٢)التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون ج١ ص ٢٠٨.

(١٠٣)المصدر السابق، ج١ ص ٢٠٨.

(١٠٤) القاسمي: الفضل المبين (مخطوط) ورقة ١٩.

(١٠٥) المصدر السابق (مخطوط) ورقة ١٩.

(١٠٦) الزبيدي: تاج العروس، ج٤ ص ٣١، ٣٢.

(١٠٧) القاسمي: الفضل المبين (مخطوط) ورقة ١٩.

(١٠٨)أي بالإجازة العامة.

(١٠٩) القاسمي: الفضل المبين (مخطوط) ورقة ١٩.

(١١٠) في معجم لسان العرب: «وقيل: حبلَ الحَبَلة، ولد الولد الذي في البطن، ومنه حديث عمر لما فتحت مصر أرادوا قسمها، فكتبوا إليه، فقال: لا، حتى يغزو منها حَبَلَ الحَبَلة، يريد حتى يغزو من أولاد الأولاد، ويكون عاماً في الناس والدواب، أي يكثر المسلمون بالتوالد» ج١١ ص ١٣٩.

(١١١)القاسمي: الفضل المبين (مخطوط)، ورقة ١٩.

(١١٢) المصدر السابق (مخطوط) ورقة ١٩.

(١١٣)المصدر السابق (مخطوط) ورقة ١٩.

(١١٤)المصدر السابق (مخطوط) ورقة ١٩.

(١١٥)المصدر السابق (مخطوط) ورقة ١٩.

(١١٦)المصدر السابق، ص ١٩.

(١١٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣٢٢.

(١١٨)المصدر السابق، ج١٤ ص ٣٢٣.

(١١٩)المصدر السابق، ج ١٤ ص ٣٢٥.

(١٢٠)المصدر السابق، ج ١٤ ص ٣٢٥.

(١٢١) المصدر السابق، ج ١٤ ص ٣٢٥.

(١٢٢)المصدر السابق، ج ١٤ ص ٣٢٦، ٣٢٧.

(١٢٣)المصدر السابق، ج ١٤ ص ٣٢٧.

(١٢٤) ابن حجة: خزانة الأدب (تقديم أبي بكر) ص ٣٥١، ٣٥٢.

(١٢٥)المصدر السابق، ص ٣٥٢.

(١٢٦)المصدر السابق، ص ٣٥٣.

(١٢٧)المصدر السابق، ص ٣٥١، ٣٥٥.

(١٢٨)القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٤ ص ٣٣٢.

(١٢٩)المصدر السابق، ج١٤ ص ٣٣٣، ٣٣٤.

(١٣٠) المصدر السابق، ج ١٤ ص ٣٢٧.

(١٣١)المصدر السابق، ج ١٤ ص ٣٢٩.

(١٣٢) المصدر السابق، ج ١٤ ص ٣٣٠.

(١٣٣)الهملاج: هملج، أحسن في السير، وسار في سرعة وبخترة. والوساع من الخيل هو الجواد الواسع الخطو.

(١٣٤)المصدر السابق، ج ١٤ ص ٣٣١.

(١٣٥)المصدر السابق، ج ١٤ ص ٣٣١.

(١٣٦)ديوان ابن نباتة المصري، ص ١٥٥، وكتابنا (ابن نباتة المصري) ص ٤٩٠-٤٩١.

(١٣٧)المصدران السابقان ص ٥١٥، ٥١٦، وص ٤٩١.

(١٣٨)ديوان ابن النقيب، ص ٢٠-٢٤، وكتابنا (محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني) ص ٢٢٤.

(١٣٩) ديوان ابن النقيب، ص ٢٠٠.

(١٤٠) المصدر السابق، ص ٢٠٠.

فهرس

المقدمة	5
القسم الأول: نشوء دور العلم	6
الجامع الأموي وأهميته الثقافية	6
القسم الثاني : العلم والعلماء	12
المدرس:	21
المعيد:	32
المفيد:	42
المنتهي:	42
الفقهاء:	42
القارئ:	62
خازن الكتب:	62
الهوامش	82
الإجازات العلميّة القسم الثالث	43
(1) الإجازات العلمية الأصيلة	34
أركان الإجازة	35
أقسام إجازات الحديث	37
الإجازة الأولى : إجازة معيَّن لمعين	38
الإجازة الثانية :إجازة معين في غير معين	38
الإجازة الثالثة:إجازة المجاز	38
الإجازة الرابعة: إجازة العموم	39
الإجازة الخامسة :إجازة المعدوم	40
الإجازة السادسة :الإجازة المطلقة	40
الإجازة السابعة : إجازة الحمل	41
الإجازة الثامنة : إجازة الطفل	41
(2) الإجازات العلمية العامة	42
الإجازة بالفتيا والتدريس	42
الإجازة بالرواية	46
الإجازة بالعراضة	48
الإجازات الشعرية:	15
(4) آداب الاستجازة والإجازة	55
المصادر والمراجع المعتمدة في هذا البحث	57
الحواشي	61